منهجية طالب العلم في التأصيل والتحصيل

تأليف

فرج بن مطلق بن محمد المرجي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين أجمعين

مكتبة خيطان الإسلامية

مَنهَجِيَّةُ طَالِبِ العِلْمِ

فِي

التَّأصِيلِ وَالتَّحصِيلِ

مَنهجيَّةُ طَالِبِ العِلمِ

في

التَّأصِيلِ والتَّحصِيلِ

تأليف

فرج بن مُطلق بن محمّد المرجي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين أجمعين

مكتبة خيطان الإسلاميّة

الطّبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

الحقوق محفوظة للمؤلف

للملحوظات:
aa5653234@gmail.com

تمَّ تنسيق هذه المادة ومُراجعتها في

مكتب إتقان
للتحقيق والدراسات العلمية

هاتف: ‎+٩٦٥ ٥٠٣٥٠٠٧٧ البريد الالكتروني: maktab.etqan@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أَنفسنا، وسيِّئات أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلل فلا هاديَ له، وأَشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾(٣).

أمَّا بعد؛

فإنَّ أعظمَ ما يملكُ المَرْءُ في هذه الدنيا دينه الذي به سعادتُه في الدنيا والآخرةِ، فيَجِبُ على كلِّ مكلَّفٍ أنْ يحرصَ غايةَ الحرص على المحافظةِ عليه؛ لأنه رأسُ مالِه، وهناك أمورٌ تعترضُ المَرْءَ لتصُدَّهُ عن هذا الدِّين، إمَّا مِن الشهواتِ ومَلاذِّ الدُّنيا، وإمَّا مِن الشُّبهات، ودَفْعُ هذه المَضارِّ يكونُ بالعلمِ والإيمان، فالمُكلَّفُ مُحتاجٌ إلى العلمِ النَّافعِ والعملِ الصالح لكي يدفع بهما

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) سورة النساء، الآية: (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: (٧٠-٧١).

الشبهات والشهوات، وحتىٰ يكون في حِصْنٍ حَصِين مِن هذه العوارضِ التي تَعْرِضُ له، فبالعلمِ يكون المرءُ في سيرِه علىٰ نورٍ من ربِّه، وبالعملِ يرتقي الإنسانُ إلىٰ أعلىٰ الدَّرجات والمنازلِ.

والعلمُ علىٰ قِسمين: علمٌ ضروريٌّ لا غِنىٰ للمُكَلَّفِ عنه، وعلمٌ ليسَ بضروريٍّ(١)، **فالضروريُّ**: معرفةُ ما يلزمُهُ مِن أُمورِ الطَّهارةِ وأحكامِ الصَّلاةِ وما يُقِيمُ به دينَه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يَجِبُ أن يَطْلُبَ من العلمِ ما يقومُ به دينُه، قيل له: فكُلُّ العلمِ يقومُ به دينُه، قال: الفرضُ الذي يَجِبُ عليه في نفسِه لابُدَّ له مِن طلبِه، قيل: مِثْلُ أيِّ شيءٍ؟ قال: الذي لا يَسَعُه جَهْلُه: صلاتُه، وصيامُه، ونحوُ ذلك»(٢).

وأمَّا ما ليس بضروريٍّ: فما لا تدعو حاجته إلىٰ معرفته من مسائل الدِّين وعلوم الآلة، وعلىٰ طالب العلم أن يحرصَ علىٰ القسمين؛ لأنَّ بهما كماله وتمام نوره.

ومقصودُنا في هذه الرِّسالةِ: رَسْمُ منهجيةٍ يَسِيرُ عليها طالبُ العلمِ في تحصيلِ العلمِ، ليُدْرِكَ بها إنْ شاءَ اللهُ من العلمِ ما يكونُ سببًا لرفعتِه عند الله عَزَّ وَجَلَّ، كما أنِّي أذكرُ بعضَ الفوائدِ اسْتِطرادًا لتنشيط القارئ وإفادَتِه.

---

(١) **انظر**: «فرض طلب العلم» للآجري (ص٨١)، و«جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٩٢).
(٢) **انظر**: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ١٢١)
(*) أصل هذه الرِّسالة محاضرات أُلقيت بعنوان: «منهجية طالب العلم»، فرَغِبَ أَحَدُ الإخوةِ بنشرها ليَعُمَّ نفعُها، فأَذِنْتُ له.

الفصلُ الأوَّلُ:
أهميةُ العلم وفضلُه

ينبغي أن يعرفَ الإنسانُ أهميةَ العلمِ وفضلَه؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يسعى المَرْءُ في شيءٍ إلا بعد معرفةِ أهميتِه و حاجتِه له، والعلمُ مصدرٌ للرُّقِيِّ والسُّمُوِّ، فلفظُ: «العلمِ» شعارٌ للرُّقِيِّ، وضدُّهُ: «الجهلُ» الذي هو شعار للسُّفلِ، و لذلك يقول بعض أهلِ اللغة في كلامٍ معناه: «إنَّ كُلَّ معنى في اللغة العربيةِ له مِنَ الدَّلائلِ النَّفسيةِ ما يُشِيرُ له اللفظُ»[(١)].

فمثلًا لو قلتَ: «صَخْرَة» ينعكسُ في نفسك من هذا اللفظِ معنى اليُبُوسَةِ والصَّلابةِ، وإذا قلتَ: «قُطْن» ينعكسُ من هذا اللفظِ في نفسك أنَّ فيهِ معنى النُّعومةِ والرِّقةِ والخِفَّةِ، وكذلك لفظُ: «العلم»، فيجدُ الإنسانُ في نفسِه الرُّقِيَّ من هذا اللفظِ، ويكفي أنَّ العلمَ ضِدُّ الجهلِ.

والوصفُ بالجهلِ لا يرتضِيهِ أحدٌ غالبًا، حتى مَنْ كان مُتَلبِّسًا به؛ لنُفْرَةِ النُّفوسِ من هذا اللفظِ، كما قال علي رضي الله عنه: «كفى بالعلمِ شرفًا أن يدَّعيه مَن لا يُحْسِنُهُ، ويفرح إذا نُسِبَ إليه، وكفى بالجهلِ ذمًّا أن يتبرأَ منه مَن هو فيه»[(٢)].

(١) **انظر**: «الخصائص» لابن جني (٢/ ١٥٢-١٦٨)، و«تاريخ آداب العرب» للرافعي (١/ ١٧٦).

(٢) **انظر**: «المحاسن والمساوئ» لإبراهيم بن محمد البيهقي (ص٤٢٧)، و«تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص٤١).

وممَّا يدلُّ على فَضْلِ العلمِ من القرآن:

* ثناءُ الله ﷻ على أهلِه، ولا يثني ﷻ إلا على مَن هو أهلٌ للثَّناءِ، فقال ﷻ: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾(١).

قال ابنُ جرير: «يرفَع اللهُ الذين أُوتوا العِلْمَ مِنْ أَهلِ الإيمانِ على المؤمنين الذين لم يُؤْتَوا العِلْمَ بفضْلِ عِلْمهم درجات، إذا عَمِلُوا بما أُمِرُوا به»(٢).

* وقال ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾(٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «استشهدَ سبحانه بأُولي العلمِ على أَجَلِّ مشهودٍ عليه، وهو توحيدُهُ، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ﴾، وهذا يدلُّ على فضلِ العلمِ وأهلِه مِن وُجُوهٍ:

أحدها: استشهادُهُم دونَ غيرِهم مِنَ البشرِ.

والثاني: اقترانُ شهادتِهم بشهادتِه.

والثالث: اقترانُها بشهادةِ ملائكتِه.

والرابع: أنَّ في ضِمْن هذا تزكيتَهم وتعديلَهم؛ فإنَّ اللهَ لا يستشهدُ مِنْ خلقِه إلا العُدُول»(٤).

---

(١) سورة المجادلة، الآية: (١١).

(٢) «جامع البيان» (١٠/ ٧١٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٨).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٣١)، وقد ذكر رحمه الله عشرة أوجه في هذه الآية.

❁ وقال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١)، فأثنى اللهُ على أهلِ العلمِ بأنهم عَلِمُوا بأنَّ اللهَ أنزلَ الحقَّ.

❁ وقال ﷻ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾(٢)، فهذا مِن ثناءِ الله ﷻ على أهلِ العلمِ.

❁ وقال ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣)، فيها الإشارةُ إلى مكانةِ أهلِ العلمِ.

❁ وقال ﷻ: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾(٤)، فمدحهم بالعلمِ؛ لأنَّهم علموا أنَّ المنزل من الله نزل بالحقِّ.

❁ وبيَّنَ الله تعالى أنَّ أهلَ العلم هم الذين عرفوا ما أرادَهُ الله ﷻ، وأنهم هم الذين يخشونَه فقال ﷻ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾(٥)، فوصفَ أهلَ العلمِ بأنهم هم الذين يُسارعون بالإيمان، ويبتغونَ ما عندَ الله ﷻ.

---

(١) سورة الرعد، الآية: (١٩).

(٢) سورة سبأ، الآية: (٦).

(٣) سورة النَّحل، الآية: (٤٣).

(٤) سورة الأنعام، الآية: (١١٤).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (١٠٦، ١٠٧).

❁ قال ابن القيم في هذه الآية: «إنَّ الله سبحانه سلَّى نبيَّه بإيمان أهل العلم به، وأمره ألا يعبأ بالجاهلين شيئًا...، وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهل العلمِ، وتحته أنَّ أهله العاملين قد عرفوه وآمنوا به وصدَّقوا، فسواءٌ آمنَ به غيرُهم أو لا». «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٣٤).

* وكذلك بيَّن ﷻ أنَّ أهلَ العلمِ هم الذين حفظوا الشريعةَ، وحِفْظُها يكونُ بحفظِ آياتِ الله الشَّرعيةِ فقال ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾(١).

وفي قوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(٢) دلالةٌ على شرفِ العلمِ؛ لأنَّ الله ﷻ لم يأمُرْ نبيَّه ﷺ بطلبِ الازديادِ من شيءٍ إلا من العلم(٣).

* وقال ﷻ مُمْتنًّا على نبيِّه بما أنزلَ عليه من فضلِه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٤).

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾(٥)، فالعلماءُ هم أهلُ الخشيةِ لله ﷻ.

فإذا كانتْ هذه الأوصافُ والمقاماتُ لأهلِ العلمِ، ألا يَسْتَحِقُّ هذا الوصفُ أن يَسعى إليهِ كُلُّ ساعٍ؟!

فعلى الإنسانِ أن يَحْرِصَ غايةَ الحرصِ على تحصيلِ العلمِ؛ لِمَا له مِن المنزلةِ عند اللهِ ﷻ، وقد قال الشاعرُ:

وفي الجهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ ... فأَجْسامُهُم قبلَ القُبورِ قبورُ
وأرواحُهُم في وَحْشَةٍ مِن جُسُومِهِم ... فليسَ لهم حتَّى النُّشُورِ نُشُورُ(٦)

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: (٤٩).
(٢) سورة طه، الآية: (١١٤).
(٣) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (١/ ٢٥٣).
(٤) سورة النساء، الآية: (١١٣).
(٥) سورة فاطر، الآية: (٢٨).
(٦) انظر: «أدب الدنيا و الدين» للماوردي (ص٨٨).

فالجهلُ ظُلمةٌ، والعلمُ نورٌ، قال ابنُ القيِّم ﴿رَحِمَهُ ٱللَّهُ﴾: «العلمُ حياةٌ ونورٌ، والجهلُ موتٌ وظُلمةٌ»[١].

* وقد وصفَ اللهُ ﷻ العلمَ بأنه نورٌ فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾[٢]، وقال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[٣]، فسمَّاهُ اللهُ نورًا، وهذا كلُّه ممَّا يبيِّنُ منزلةَ العلمِ وفضلَه.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٤٥).

(٢) سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).

(٣) سورة الشورى، الآية: (٥٢).

وأيضًا وردتْ أحاديثُ كثيرةٌ في بيانِ فضلِ العلمِ، منها:

(١) حديثُ مُعاويةَ رضي الله عنه في «الصَّحِيحين» قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ يُـرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهُهُ في الدِّين**»[(١)].

فإذا أرادَ اللهُ بعبدِه خيرًا رزقَهُ الفقهَ في الدِّين، والفقهُ في الدِّين يكونُ بطلبِ العلمِ، والسَّعيِ في تحصيلِه[(٢)].

(٢) وحديثُ أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**فَضْلُ العالمِ على العابدِ كفَضْلِي على أدناكم**»، ثمَّ قال ﷺ: «**إنَّ اللهَ وملائكتَه وأهلَ السماواتِ والأرَضين، حتَّى النَّملةَ في جُحرِها، وحتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ الناسِ الخيرَ**»[(٣)].

(٣) وحديثُ أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه مرفوعًا: «**مَنْ سَلَكَ طريقًا يبتغي فيه علمًا سَلَكَ اللهُ به طريقًا إلى الجنةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَها رِضًا لطالبِ العلمِ، وإنَّ العالِمَ ليستغفِرُ له مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ، حتَّى الحيتان في الماءِ، وفَضْلُ العالمِ على العابدِ، كفَضْلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يورِّثُوا دِينارًا ولا دِرهمًا، إنَّما ورَّثُوا العلمَ، فمَنْ أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافرٍ**»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧).

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦١).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٧٨)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٨١).

(٤) رواه أبوداود (٣٦٤١) و الترمذي (٢٦٨٢) و ابن ماجه (٢٢٣) وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٠)، والجملةُ الأولى جاءت في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم (٢٦٩٩).

(٤) وفي حديث جابرٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مُعلِّمُ الخيرِ يستغفرُ له كُلُّ شيءٍ حتَّى الحيتان في البحرِ**»(١).

قال ابنُ القيِّم رحمه الله: «قيل: سببُ هذا الاستغفارِ أنَّ العالِمَ يُعَلِّمُ الخَلْقَ مُراعاةَ هذه الحيواناتِ، ويُعرِّفُهم ما يَحِلُّ منها وما يحرمُ، ويُعرِّفُهم كيفيةَ تناوُلِها، واستخدامِها، ورُكوبِها، والانتفاعِ بها، وكيفيةَ ذبحِها على أَحْسَنِ الوُجوهِ وأَرفقِها بالحيوانِ، والعالِمُ أَشفقُ الناسِ على الحيوان، وأقومُهم ببيان ما خُلِقَ له»(٢).

وفي قوله ﷺ: «**فَضْلُ العالم على العابِدِ كفضلِي على أدناكم...**»: ذَكَرَ المُفاضلةَ بينَ العالمِ والعابِدِ، ولم يُفاضِلْ بينَ العالمِ وسائرِ الناس.

والعابِدُ -وإن كان على ديانةٍ وخيرٍ- لكنْ بينَه وبينَ العالمِ فَرْقٌ(٣)؛ فالعابِدُ يتعبَّدُ اللهَ، وربَّما يُصيبُ وربَّما يُخطئُ، ولكنَّ العالمَ لا يتعبَّدُ إلا على نُورٍ وبَصِيرةٍ، ويدلُّ على هذا الفرق ما حدَّث به النبيُّ ﷺ: «**أنَّه كان فِيمنْ كان قبلكم رجلٌ قتلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على راهبٍ، فأتاهُ فقال: إنَّه قتلَ تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهل له مِن توبةٍ؟ فقال: لا، فقتلَهُ، فكمَّلَ به مائة، ثمَّ سألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ على رَجُلٍ عالمٍ، فقال: إنَّه قتلَ مائة نفسٍ، فهل له مِن توبةٍ؟ فقال: نعم، ومَن يَحُولُ بينَه وبينَ التوبةِ؟ انطَلِقْ إلى أرضِ كذا وكذا، فإنَّ بها أُناسًا يعبدونَ اللهَ فاعْبُدِ الله معهم، ولا تَرجِعْ إلى أرضِك، فإنَّها أرضُ سُوءٍ...**»(٤).

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٦/ ٢١٤) من حديث جابر رضي الله عنه، والبزار في «مسنده» (١٨/ ١٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني (٣٠٢٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٧٥).

(٣) انظر: «شرح حديث أبي الدرداء» لابن رجب ضمن مجموع رسائله (١/ ٤٢).

(٤) رواه البخاري (٣٤٧٠) ومسلم (٢٧٦٦) واللفظ له.

فالعابِدُ قال له هذا القولَ لأنه ليسَ عندَهُ علمٌ مِنَ الشَّريعةِ، فتعاظم هذا الذَّنبَ، لأنه مُشْتَغِلٌ بالعِبادةِ، وصاحِبُ العبادةِ قد يَعْظُمُ عليه أيُّ ذَنْبٍ ولو صَغُرَ، فكمَّل به المائة، وسألَ عن أعلمِ أهلِ الأرضِ فدُلَّ علىٰ عالمٍ، فلمَّا سأَله بيَّنَ له حُكْمَ الشَّرعِ فقال: «**مَنْ يَحُولُ بينَه وبينَ التوبةِ**» وأرشدَهُ، يعني: لم يتركْهُ هكذا، بل زادَه خيرًا بإرشادِه، فقال: «**إنَّ أرضَكَ أرضُ سُوء...**»، ثُمَّ أمرَهُ أنْ يذهبَ إلىٰ الأرضِ الأُخرىٰ.

وفي قوله ﷺ: «...**إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثُوا العلمَ، فمَنْ أخذَ به أخذَ بحظٍّ وافرٍ**» فيه بيانُ فَضلِ العلماءِ، وأنهم أَولىٰ النَّاسِ بالأَنبياءِ، ولذلك مثَّلَهم النبيُّ ﷺ بقولِه: «**إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ**»، ومعلومٌ أنَّ الوارثَ هو أولىٰ الناسِ بمالِ مُوَرِّثِه، فلا يُمْكِنُ أن يأتيَ إنسانٌ بعيدٌ ويَرِثَ مِنْ هذا الإنسان ما هو مُستَحَقٌّ للغيرِ.

فلذلك لو هلكَ هالكٌ عن ابنٍ، وجاءَ ابنُ أخيهِ يريدُ مِن هذا المالِ نقول: «ليسَ لك حقٌّ ما دامَ أنَّ فيه وارِثًا له، وهو أقربُ الناسِ إليه».

فالعلماءُ الذين تعلَّمُوا أحكامَ الشريعةِ هم أولىٰ الناسِ بالأَنبياءِ، والأَنبياءُ هم أصفياءُ اللهِ، وهم خُلاصَتُه مِنَ العَبيدِ، والله ﷻ لا يَصْطَفِي مِنَ الناسِ إلا مَن رَضِيَهُم، والأنبياءُ قد رَضِيَهم اللهُ ﷻ.

والنُّبُوَّةُ قبلَ الرِّسالةِ، ولذلك لم يقل النبيُّ ﷺ: «إنَّ العلماءَ ورثةُ الرُّسلِ»، بل قال: «**إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ**»، لأنَّ النبوَّةَ مقدمة الرِّسالة، فالرسولُ لا تَحْصُلُ له الرسالةُ إلا بعد الإنباءِ، ولذلك لمَّا أراد الله ﷻ ختمَ الرِّسالات

قال: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[١]، لأنه إذا ختمَ النبوَّةَ فمنْ بابِ أولىٰ أن تُخْتَمَ الرسالةُ، فلا تَحصلُ له الرسالةُ إلا بعدَ الإنباءِ، ولذلك يقول أهل العلم: «إنَّ الرسولَ نُبِّئَ بـ: «اقْرأ»، وأُرْسِلَ بـ: «المُدَّثِّر»، فالإنباء قبلَ الإرسال.

(٥) وفي حديث أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ مثلَ ما بعثني اللهُ به عز وجل مِنَ الهُدىٰ والعِلمِ كمَثَلِ غيثٍ أصابَ أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلتِ الماءَ فأنبتتِ الكلأ والعُشْبَ الكثيرَ، وكان منها أجادبُ أَمْسَكَتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ، فشربوا منها وسَقَوا ورَعَوا، وأصاب طائفةً منها أخرىٰ إنَّما هي قِيعان؛ لا تُمْسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فقهَ[٢] في دينِ الله، ونفعَهُ بما بعثني اللهُ به، فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لم يرفعْ بذلك رأسًا، ولم يقبلْ هدىٰ الله الذي أُرْسِلْتُ به**»[٣].

هذا مَثَلٌ ضربَهُ النبيُّ ﷺ ليُبيِّنَ فَضْلَ مَن قَبِلَ هذا النورَ، وهو نور العلم والهدىٰ، فجعلَ ﷺ الناسَ ثلاثَ طوائفَ علىٰ حسبِ أنواعِ الأَرضِ[٤]، منها طائفةٌ قَبِلَت هذه الشريعةَ، ووَصَفها النبيُّ ﷺ بقوله: «**طائفةٌ طيِّبةٌ**» فتعلَّمتْ واستفادتْ وأفادت «**فأنبتتِ الكلأ والعُشْبَ الكثيرَ**»، والكَلأُ والعُشبُ الكثيرُ فيما بثّوه مِنَ العلمِ في النَّاس، حتَّىٰ انتفعَ الناسُ، ووَجَدُوا خيرَ هذا العلم، فوجدَ الناسُ الخيرَ والبركةَ مِن هذه الطائفة، وهي في أعلىٰ المقامات.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٤٠).

(٢) بضم القاف أو كسرها، انظر: «مرقاة المفاتيح» (١/ ٣٥٢)

(٣) رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

(٤) انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٢) و«الوابل الصيب» (ص١٣٥).

وأذكُرُ في هذا المقامِ رؤيا للشيخ محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إني رأيتُ رُؤْيا أنه أصابَنا مَطَرٌ شديدٌ، وخَرَجْتُ مِن هذا المسجدِ - يعني مسجده- وأنا حاسِرٌ ثوبي، وصِرْتُ أمشي إلى البيتِ، فقال بعضُ الطلابِ: ماذا أوَّلْتَهُ؟ قال: أوَّلْتُهُ أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ سينفَعُ بهذا المسجدِ أُناسًا كثيرين».

وصَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ حيثُ أصبحَ مسجدُهُ منارًا للعلمِ، وانبعثَ من مسجدِهِ إلى مشارقِ الأرض ومغاربها الناسُ الكثير.

فتَجِدُ طلابًا للشيخ في أمريكا وفي الصِّين وفي أوروبا، حتى في الجمهوريات الرُّوسية كطاجكستان، وفي السَّنواتِ الأخيرةِ كان يأتيه طلاب من الجمهوريات المستقلة، وكان الشيخ يعتني بهم عنايةً خاصة جدًا، ويجد فيهم نبلًا، وهم على معتقد سليم- معتقد أهل السنة والجماعة-.

وقال لهم الشيخُ مرةً: «أنا أَستغربُ أنَّ عندكم تحصيلًا جيدًا للعلم، وكونُكم تأتونَ مِن تلكَ البلادِ وترغبونَ في هذا البلدِ وفي تلقي علومِه؛ يدلُّ على أن البذرةَ جيدةٌ، فكيفَ بَقِيتُم مع أنَّا نسمعُ أنَّ الشُّيوعيةَ قَمعيةٌ»، فقام أحدُ الطلاب-وأنا كنتُ موجودًا- وشرحَ الوضعَ هناك وقال: «صحيحٌ، إنَّ الشيوعيةَ قمعيةٌ إلى أبعدِ حَدٍّ، وتمنعُ جميعَ الأديان، سواءٌ نصرانية أو غيرها، لكن كان يوجدُ عنايةٌ من المسلمين، وكانت بلادُ الشِّيشان وطاجَكِستان على المعتقدِ السَّلَفيِّ الأوَّلِ، وكانوا يعتنون ببعضِ الأولادِ الذين يجدُونَ فيهم رغبةً في العلمِ الشرعيِّ، فيُدخِلونَهم سراديبَ تحتَ الأرضِ، يمكُثُ فيها ثلاث سنواتٍ أو أربعًا، لا يرى أهلَهُ، ولا يختلِطُ بأحدٍ، إنَّما يتلقى العلومَ، حتى إذا كَبِرَ واشْتَدَّ ساعِدُهُ حصَّل علمًا، وكانوا يتواصَونَ ألا يَعْلَمَ عنهم أَحَدٌ، ويشكرون الله عَزَّوَجَلَّ».

فانظرْ إلى مَثَلِ النبيِّ ﷺ في بيانِ الهُدى والنُّورِ الذي بُعِثَ به وانتفاع النَّاس به، وما حصلَ من تأويل رؤيا الشيخ، حتى صارَ مسجِدُهُ إِشعاعًا للنُّور والعلم.

والناسُ في أمريكا يقولون: «إنَّا نفرحُ بأشرطةِ الشيخِ ابنِ عثيمين»، وتَجِدُ عندهم شروحات قبلَ أن تُطْبَعَ مؤلفاتُ الشَّيخ؛ مِن شرح الواسطية وشرح الحموية وغيرها من الشروحات، ويَعتنون بها.

والشيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ أعطاهُ اللهُ قوةً في بَسْطِ المسائلِ وتسهيلِها، ويفهمُهُ من كان له أدنى فهم، وفي مجلسِهِ ينتفعُ العالِمُ، وينتفعُ الإنسانُ الذي ليسَ عنده من العلمِ إلا الشيءِ اليسير، وتَجِدُ في الدرسِ الواحِدِ ينتفعُ الإنسانُ مِنَ الناحيةِ اللُّغويةِ، والفِقْهِ، والتَّفسيرِ، والعقيدةِ، وغيرها، وهذا لِتوسُّعِ الشيخ، وقوة مَداركِه ، حتى إنَّ مسجدَ الشيخِ في عُنَيزةَ لم يكن باسمه، بل كان اسمُهُ: «جامعُ عنيزة» أو «الجامعُ الكبيرُ»، ولكن لمَّا كان الشيخُ أطولَ من مكثَ في إمامته وصار مصدرَ إشعاعٍ لعلمِهِ؛ سُمِّي المسجد بعدَ وفاتِه باسمِه(١).

ثُمَّ ضربَ النبيُّ ﷺ مَثَلًا آخرَ فيمَن انتفعَ انتفاعًا جزئيًّا مِن هذه الشريعةِ والنُّورِ والهُدى، فقال ﷺ: «**وكان منها أجادبُ أَمْسَكتِ الماءَ، فنفعَ اللهُ بها الناسَ**»، وهذا مَثَلُه مَثَلُ الذي يحفظُ لكن ليسَ عندَهُ مِنَ الفقهِ ما يُؤَهِّلُهُ للاستنباطِ والاستدلالِ، فإنَّ الاستنباطَ والاستدلالَ مَلَكَةٌ لا تَتَحَصَّل للطالبِ إلا بعدَ مُمارسةٍ ومُذاكرةٍ، ونظرٍ في أصول العلم.

---

(١) انظر في تاريخ الجامع الكبير في عُنيزة: «علماء نجد خلال ثمانية قرون» للبسام (٣/ ٢٥٣-٢٦٣) و«الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمية والعملية» (ص٦٦).

أمَّا الطائفةُ الثالثةُ فقال عنها ﷺ: «**إنَّما هي قِيعان لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كلأً**»، وهذا حالُ بعضِ النَّاسِ، فتَجِدُ أنَّ قلبَهُ لا ينتفعُ بهذا النُّورِ كثيرًا، و لا ينفعُ غيرَهُ أيضًا.

يقول ابنُ القيِّم رحمه الله: «اشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ على التَّنبيهِ على شرفِ العلمِ والتَّعليمِ، وعِظَمِ موقعِه، وشقاءِ مَن ليسَ من أهلِه...وفيه دلالةٌ على أنَّ حاجةَ العبادِ إلى العلمِ كحاجتِهم إلى المطرِ، بل أعظمُ، وأنهم إذا فَقَدُوا العلمَ فهم بمنزلةِ الأرض التي فقدتِ الغيثَ»[1].

(٦) وكذلك ممَّا أشارَ إليه النبيُّ ﷺ في بيانِ العلمِ والهدى ما قاله لعليِّ ابن أبي طالب رضي الله عنه: «**لأَن يهديَ اللهُ بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من أن يكون لك حُمرُ النَّعَم**»[2]، هذا الحديثُ كثيرٌ مِنَ الناسِ يَقصُرُه على باب الدعوة، فيقول: «كونُكَ تدلُّ أحدًا على طريقِ الهدى ويَسلُكُه هذا هو المقصود»، والمرادُ من هذا الحديثِ أعمُّ مِن هذا المفهوم، وهو أنَّ الإنسان إذا هدى غيرَهُ ولو في مسائل العلمِ يشملُهُ هذا، فمثلًا لو جاءَكَ رجلٌ ودللتَه على القولِ الحقِّ في مسألة علمية، فأنت -إنْ شاء الله- ممَّن دخلَ في هذا الحديث.

وقد بوَّبَ أبو داود على هذا الحديث «بابُ فضلِ نشرِ العلمِ»[3].

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله: «هذا الحديثُ يدلُّ على فضلِ العلمِ والتَّعليمِ، وشَرَفِ منزلةِ أهلِه، بحيث إذا اهتدى رجلٌ واحدٌ بالعالِم كان ذلك خيرًا له من

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٤)

(٢) رواه البخاري (٢٩٤٣) ومسلم (٢٤٠٦)

(٣) «كتاب السُّنن» (ص٧٦٧ – ح٣٦٦١).

حُمْرِ النَّعَم -وهي خيارُها وأشرفُها عندَ أهلها-، فما الظنُّ بمَن يهتدي به كُلَّ يومٍ طوائفُ من الناسِ»(١).

فالهدايةُ إلى المسائلِ العِلميَّةِ داخلةٌ -إن شاء الله- في فضلِ هذا الحديثِ، فإذا دَلَلْتَ شخصًا وهديتَه إلى مسألةٍ مِن مسائلِ العلمِ و قلتَ: «الصوابُ فيها كذا بدليلِ كذا وكذا» فأنتَ داخل في هذا الفضل، وإذا هديتَه إلى الإسلامِ العامِّ ودخلَ في دينِ الله، فأنت داخلٌ في هذا كذلك، هذا كلُّه ممَّا يدلُّ عليه هذا الحديثُ.

وممَّا يدلُّ أيضا على أهميةِ العلمِ وبيانِ فضلِه وفضل أهلِه وشرفِهم ما يَتركُه العلمُ في أهلِه مِن أَثَرٍ، فالعلمُ يتركُ أثرًا في أهلِه وفي الأُمَّةِ، أعني في العالِم نفسِه؛ لأن العالِمَ نفعُه متعدٍّ؛ انتفعَ بنفسِه، وعَلَّمَ غيرَه، أما العابِدُ فنفعُه لازمٌ لنفسِه، يَرِقُّ قلبُه وينتفعُ بما عَلِمَ من الهدى، لكن العالِمَ نفعَ نفسَه ورَقى بها فصار أثرُهُ جميلًا، فنفسُهُ ازدادتْ خشيةً لله، وهذا غاية العلم، فغايةُ العلمِ أنْ يُوصلَكَ إلى خشيةِ الله.

ولذلك قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ليسَ العلمُ عن كثرةِ الحديثِ، إنَّما العلمُ خشيةُ الله»(٢).

يعني: العلمُ الذي لا يُوصلكَ إلى الخشيةِ ليسَ بعلمٍ، فالعلمُ الخشيةُ، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(٣).

فالعلمُ الذي لا يُوصِلُكَ للخشيةِ لا خيرَ فيه، ولذلك تَجِدُ أنَّ العالِمَ دائمًا أخشى الناسِ لله وأشدُّهم حذرًا منه، -هذا إذا كان علمُه على هدًى ونورٍ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٦٦) وانظر: «المفهم» للقرطبي (٦/ ٢٧٦)

(٢) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٦٠٨)

(٣) سورة فاطر، الآية: (٢٨).

حقيقي- أمَّا مَن كان علمُه لا يزيدُه إلا غَوايةً فهذا إمَّا أنه لم يكن مُخلِصًا في علمِه، أو أنَّ علمَه هذا لم يكن على هدًى صحيحٍ، فصار كحاطبِ ليلٍ؛ يَجْمَعُ ثقافةً و معلومات لا تُوصِلُ إلى غايةٍ حَميدةٍ.

وأمَّا أثرُه في الأمَّةِ فأثرٌ مباركٌ، و ما زالَ -ولله الحمد- أثرُ علماء سبقُونا بقُرونٍ، نتدارسُه ونترضَّى عنهم، ولذلك يترحَّمُ النَّاسُ على العلماءِ، وربَّما لو قرأتَ في سيرةِ عالم واحدٍ تتأثَّرُ ممَّا ترى من خشيتِه لله، ونفعِه لعبادِ الله، وإذا أردتَ المزيدَ فاقرأ في سِيَرِ العلماءِ تَجِدْ شيئًا رُبَّما يكون أقربَ للخيالِ لكنَّه حقائق، وما هذا إلا لأنَّهم عَلِمُوا وعَلَّمُوا فازدادوا خيرًا.

وجاء في الأثرِ: «فقيهٌ واحدٌ أشَدُّ على الشيطان مِن ألفِ عابد»[١]؛ لأنَّ العالِمَ نفعُهُ متعَدٍّ، ويُبيِّنُ للنَّاس الخيرَ، ويَدُلُّهم عليه، ويُرشِدُهُم إلى الصَّوابِ، ويحذِّرُهم من عدوِّهم، كُلُّ هذا في العالِم.

فإذًا العالمُ في الحقيقة أثرُهُ حَميدٌ على الأمَّةِ، ويسعى في إصلاحِها، ويسعى في تربيتِها، وتجدُهُ يتألَّمُ لآلام الأمَّةِ، ويسعى في رِفْعَتِها، ولكنَّه يَزِنُ الأمورَ بميزان الشرع، ولذلك العالمُ هو الذي يَعْرِفُ الفتنَ، وكيفيةَ الخَلاصِ منها.

قال بعضُ السَّلفِ:«إذا أقبلتِ الفِتنةُ لا يعرِفُها إلا العالم، لكنَّها إذا أَدبرت قال: عرفَها الجاهلُ»[٢]، - نسأل الله العافية-.

---

(١) روي مرفوعًا وموقوفًا، قال ابنُ القيم في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٢٧): «والظاهِرُ أنَّ هذا وما أشبهَهُ من كلام الصَّحابةِ فَمَنْ دُونَهم»

وانظر: «العلل المتناهية» لابن الجوزي (١/ ١٢٦)، و«السلسلة الضعيفة» (٢٦٥١).

(٢) قاله الحسن البصري كما في «الطبقات» لابن سعد (٩/ ١٦٦) و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٩/ ٢٤)

فمثلًا فتنةُ الخوارجِ في زمنِ عثمان رضي الله عنه وما ألَّبوا به الناسَ على عثمان رضي الله عنه، وما صاروا يُوشُون فيه، ربَّما لو عايشناها أو عايشَها كثيرٌ منَّا لانجرفَ معها؛ لأنَّ عندهم فيما يزعمون أدلةً وبراهينَ وهي في حقيقتها شُبَهٌ وضلالاتٌ، فهذه الفرقُ الضالَّةُ عندها أدلةٌ، وليست خاليةً، والله عز وجل يُثَبِّتُ الناسَ بالعلماء.

فالذي حصَلَ في ذلك الزمان، الآن أنتَ تنظرُ له من بعيدٍ لكونها انتهت، وتعرِفُ أنَّ الحقَّ مع عثمان رضي الله عنه، لأنك لم تعايشها، وهَلُمَّ جرًّا، حتى في الفتنِ التي تقعُ في وقتنا الحاضر، لذلك الإنسان إمَّا أنْ يَجِدَّ ويجتهدَ في تعلُّمِ العلم على أصولِه، أو أنه يلتزمُ أهلَ العلم فيما يقولون، لكي يَخْرُجَ بذلك من الفتنِ -بإذن الله-، لأنَّ العالِمَ إنْ تكلم فعنْ عِلْمٍ، وإنْ سكتَ فعنْ حكمةٍ وحِلْم، فهم يتكلمون بعلمٍ وبصيرةٍ، ويسكتونَ عن حكمةٍ وحلمٍ، وإذا أدبرتِ الفتنةُ وانتهتْ صارَ الناس يعرفون أنَّ هذه فتنةٌ، وأنَّه كان ينبغي على الناسِ أن يتركوها ويبتعدوا عنها.

ومما يدلُّ على فضل العلم ثناءُ العلماء عليه وعلى أهلِه، قيل للإمام أحمدَ: «ما أفضل الأعمال؟ قال: طلبُ العلمِ؛ لِمَنْ صحَّتْ نيَّتُه، فقيل: وأَيْشٍ تصحيحُ النيَّةِ؟ قال: ينوي، يتواضع فيه وينفي عنه الجهلَ»[(١)].

و قال الإمامُ أحمدُ أيضًا:«العلمُ مواهبُ من الله ليس كُلَّ أحدٍ ينالُه»[(٢)]، والإنسانُ إذا جَدَّ واجتهدَ أدركَ هذه المنزلة العالية إن شاء الله.

هذا ما أحببنا أن نُبَيِّنَه في هذا الفصلِ، في بيان فضل العلم، وأهميتِه للناس، من واقعِ اسْمِه وما يقابله من الجهل، وكذلك مِن ثَناء الله عز وجل، وثناء نبيِّه صلى الله عليه وسلم، وأثرِهِ على نفس العالِمِ وعلى الأمَّةِ، وثناءِ أهلِ العلم عليه.

---

(١) انظر: «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (٢/ ٤٧٦) و«الآداب الشرعية» (٢/ ١٢٦).

(٢) انظر: «المقصد الأرشد» لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ٤٩٦).

الفصل الثَّاني:
آداب طالب العلم

نُبيِّنُ في هذا الفصلِ آدابًا ينبغي لطالب العلمِ الحرصُ عليها، وهذه الآدابُ منها ما هو واجب مُحتَّمٌ، ومنها ما هو مسنونٌ مُكَمِّل، فلمَّا كان العلمُ عبادةً لله ﷻ بل هو من أعلى مقامات العبودية؛ لأنَّ الإنسانَ لا يدركُ حقيقةَ ما لله على خلقِه، وما تصحُّ به العبادةُ إلا عن طريق العلم، كان العلم عبادة لله ﷻ.

ولذلك اختلفَ أهلُ العلم أيُّ النوافلِ أفضل في التقربِ والاشتغال فيها؟ فقال بعضُ أهل العلم: «إنَّ أفضلَ النوافل التي يَشتغِلُ بها الإنسانُ هي الصلاة».

وقال بعضهم: «هي الجهاد في سبيل الله».

وقال بعضهم: «إنَّ العلمَ أفضل ما اشتغلَ به الإنسانُ من النوافل».

وهذا القول الثالث هو أقربُ الأقوال للصَّوابِ(١)، وأكثرُها حظًّا من حيث الدلالة، فالعلمُ والاشتغالُ به هو أفضل القُرَبِ وأعلى العبادات لله ﷻ، بدليل أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا جاءه وَفْدُ عبد القيس ودخلوا في الإسلام، جلسَ معهم يُعلِّمُهم أمرَ الدِّين، فجلسَ معهم مِن قبل صلاة الظهرِ، وبعدَ صلاةِ الظهرِ يعلِّمُهم أمرَ الدِّين، ولم يُصَلِّ راتبةَ الظهرِ إلا بعد العصرِ بعد انصرافِ القومِ(٢).

---

(١) قال الحافظ ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص١٨٣): «قد نصَّ الأئمة الأربعة على أنَّ طلبَ العلم أفضل من صلاة النافلة»، وانظر: «اختيارات شيخ الإسلام» لابن اللحام (ص٩٦)، «مفتاح دار السَّعادة» لابن القيم (١/ ٣٣٢)، و«الفروع» لابن مفلح (٢/ ٣٣٩).

(٢) سيأتي لفظه وتخريجه.

فذكرَ أهلُ العلم من فوائد هذا الحديثِ: أنَّ الاشتغالَ بالعلمِ أفضلُ من الاشتغال بنوافل الصلاة[(١)]، فالنبي ﷺ لم يقطعِ الحَلْقة العلمية في تعليم هؤلاء القوم إلا في الفريضة، صَلَّى بهم الظهر، أما النافلة فتركها، فلما انصرفَ القومُ بعد صلاة العصر جاء ودخلَ وصلَّى، حتى قالت أمُّ سلمةَ: «يا رسول الله رأيتُك تصلِّي صلاةً لم تكن تصليها من قبل، فقال لها: **يا بنت أبي أُميَّةَ، سألتِ عن الركعتين بعد العصرِ، وإنَّه أتاني ناسٌ من عبدِ القَيس، فشغلوني عن الرَّكعتين اللَّتين بعدَ الظُّهرِ فهما هاتان**»[(٢)].

فهذا يدلُّ على أنَّ الاشتغالَ بالعلمِ أفضلُ من نوافل سائر العبادات، ومنها: نوافل الصلاةِ.

وأمَّا عُلُوُّه على الجهاد فنقول: لا جهادَ إلا بعلم، لأنَّك إذا تعلمتَ وعرفتَ أحكامَ الشريعةِ علمتَ مَن تقاتلُ، وعلمتَ بأيِّ سببٍ تقاتل، فالمجاهد محتاجٌ إلى العلم، والعالِمُ غيرُ مُحتاجٍ للجهادِ؛ لأنه هو في جهاد حقيقة، لكنَّنا نقصدُ بالجهادِ القتالَ، فهو غير محتاج إليه، لأنه متى وُجِدَ سببُهُ وتعيَّنَ في ذاك الوقت علم وعرف تحتُّمه عليه، أمَّا ما لم يتعيَّن فليسَ واجبًا عليكَ، أمَّا المجاهِدُ فهو يحتاجُ إلى أن يعرف، هل هذا الذي أمامي مستحقٌّ أن أقاتلَه أو ليسَ مستحقًّا أن أقاتله؟ وإذا كان مستحقًّا للقتال كيفَ أقاتلُهُ؟ هل أقاتلُهُ وأَسْبِي ذراريه ومالَه؟ أو فقط أدفَعُ شرَّهُ؟ وقتالُهُ هل هو باستمرارٍ أو يكون هناك هدنة؟ وهل أنا أقاتلُهُ في حال الضَّعفِ أو في حال القوَّةِ؟ وغير ذلك من المسائل المتعلِّقة بالعلم، فإذًا

(١) انظر: «فتح الإله في شرح المشكاة» (٤/ ٣١٧).
(٢) رواه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

لَمَّا كان الجهادُ متعلقًا بالعلم، والعلمُ جهادٌ وزيادةٌ، كان الاشتغال بالعلم أعلى من اشتغال الإنسان بالقتالِ والجهاد، فلذلك أصحُّ ما يكون: أنَّ الاشتغالَ بالعلمِ أعلى مقامات التطوُّعِ في العبودية.

فطالبُ العلمِ الذي يتعلَّمُ العلمَ ويُعلِّمُهُ في عبادةٍ، ومذاكرتُه في نفسِه أو بينَ الكتبِ أو بين أقرانِه عبادةٌ، فهو مشتغلٌ في عبادة الله ﷻ، ولذلك طالب العلم دائمًا في عبادةٍ.

❋ فلمَّا كان العلمُ وطلبُهُ عبادةً تَحَتَّمَ أنْ يوجدَ فيه الإخلاصُ، وكلُّ ما قدَّمناهُ لبيان أنَّ **أوَّلَ آدابِ طالبِ العلمِ الإخلاصُ** لله ﷻ، لأنَّ العلمَ عبادةٌ، والاشتغالَ به من أفضلِ العبادات، وهو اشتغالٌ بأفضل القُرَبِ، فلا بُدَّ لهذه العبادة الجليلة من إخلاص النيَّةِ، لقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(١).

وقال ﷺ: «**إنَّما الأعمالُ بالنياتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمَن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرتُه إلى دُنيا يُصِيبها أو امرأةٍ ينكحُها فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه**»(٢).

وقال ﷺ: «**مَن طلبَ العلمَ ليماري به السُّفهاءَ، أو ليباهي به العلماءَ، أو ليصرِفَ وجوهَ الناسِ إليه، فهو في النَّار**»(٣).

فمن تعلَّم العلمَ لِيُظهرَ نفسَهُ أمامَ الصِّغارِ أنه ذو علمٍ ومكانةٍ، أو تعلَّم العلمَ ليجالسَ العلماءَ، فهذا يحطِّمُ الإخلاص.

---

(١) سورة البينة، الآية: (٥).

(٢) رواه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧).

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٩).

وقال ﷺ: «**مَن تعلَّمَ علمًا ممَّا يُبتغى به وجه الله ﷻ لا يتعلَّمُهُ إلا ليُصيبَ به عَرَضًا مِنَ الدُّنيا، لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يوم القيامة**»(١)، أي: ريحها، وهذا يدلُّ على وجوبِ الإخلاصِ.

فطالبُ العلمِ يَجِبُ عليه أن يُخلصَ نيَّتَه لله ﷻ، ومرَّ بنا أثرُ الإمام أحمدَ في بيان أهمية العِلم وفضله، وبيانِ أهميَّةِ الإخلاصِ وكيفيةِ صلاحِ النيَّةِ؛ قيل للإمام أحمد-إمامُ أهل السنة-: «ما أفضَلُ الأعمال؟ قال:طلبُ العلم؛ لمن صحَّت نيَّتُهُ، فقيل: -وأَيْشٍ(٢) تصحيحُ النيَّةِ؟ [أي: كيف صلاحُ النيَّة؟] قال: «ينوي، يتواضع فيه وينفي عنه الجهل»(٣).

فقد وَجَّهَ رَحِمَهُ اللَّهُ إلى كيفيةِ صلاحِ النيَّةِ، فإصْلاحُ النيَّةِ واجبٌ على طالب العلم، **وكيفية إصلاحِها**: أن ينويَ رفعَ الجهلِ عن نفسِه، أي: ينوي بهذا العلم أن يعبدَ الله ﷻ على بصيرةٍ، فيرتَفِعُ عنه داءُ الجهلِ، وأن يكون داعيةً إلى الله على بصيرةٍ.

وإخلاصُ النيةِ أمرٌ مطلوبٌ، لأنَّ ضِدَّ الإخلاص الرياءُ، والرِّياءُ مأخوذٌ من الرُّؤيةِ، فكأنَّ المرائي يُري الناسَ عملَه، وقد قال ﷺ: «**مَنْ سمَّعَ سَمَّعَ الله به، ومَن راءى راءى اللهُ به**»(٤).

فإذا كان الإنسانُ يريدُ أنْ يُذكَرَ اسْمُهُ في الميادين ليظهرَ نفسَه، فإنَّ هذا خلافُ الإخلاص، وهو من الرِّياء، ويجبُ على الإنسانِ أن يعالجَ نيَّتَه وأن

---

(١) رواه أبوداود (٣٦٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (١٠٥).

(٢) بمعنى: أيُّ شيءٍ.

(٣) سبق (ص٢١).

(٤) رواه البخاري(٦٤٩٩) ومسلم (٢٩٨٦).

يَحرصَ غايةَ الحرصِ علىٰ تصحيحِ مسارِه، ويحرصَ دائمًا أن يُوجِدَ هذا الأثر في نفسِه: «أني أتعلَّمُ العلمَ أولًا: لِتكونَ عبادتي علىٰ بصيرةٍ، متمثلًا قولَ الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[1]، ولأكونَ سببًا في الخيرِ كوني أُعلِّم فلانًا وفلانًا وأرشِدُهُ إلىٰ هذا الخيرِ»، فهذا كلُّه من الخير، فإذا استحضرتَ هذا فسيكون أمرُ النيةِ عندكَ سهلًا بإذن الله.

ولذلك قال سفيانُ بنُ عُيينةَ ؒ: «كنتُ أوتيتُ فهمَ القرآن، فلما قَبِلْتُ الصُّرةَ، سُلِبْتُهُ»[2]، يعني: كأنَّه قَبِلَ الصُّرَّةَ مرَّةً مِنَ السلطان فحصل له ذلك، وهذا ربَّما قاله ؒ من باب هَضْمِ النفس، وتحذيرًا لطالب العلم.

ولا شكَّ أنَّ العلمَ إذا استمرَّ فيه الإنسانُ حتىٰ لو وَجَدَ في نفسِهِ شيئًا من المُراءاة إلا أنَّه ما زال يُعالجها ويَحمِلُها علىٰ أحسنِ نيَّةٍ، فإنه لا بد أن توصلَهُ إلىٰ بَرِّ السَّلام.

ولذلك قال مَعْمَرُ بنُ راشد ؒ: «إنَّ الرجلَ ليطلُبُ العلمَ لغيرِ الله فيأبىٰ عليه العلمُ حتىٰ يكونَ لله»[3]، يعني: أنَّ العلمَ بإذن الله سيصيِّرُكَ لله؛ لأنَّ العلمَ يَحمِلُكَ علىٰ الطاعة وعلىٰ الخشية.

وفي ذلك يقول الحافظ الذهبي ؒ: «نعم، يطلبُهُ أوَّلًا، والحاملُ له حبُّ العلمِ، وحُبُّ إزالَةِ الجهلِ عنه، وحُبُّ الوظائفِ، ونحوُ ذلك، ولم يكن عَلِمَ وجوبَ الإخلاص فيه، ولا صِدقَ النيةِ، فإذا عَلِمَ، حاسبَ نفسَهُ، وخافَ مِن

---

(١) سورة يوسف، الآية: (١٠٨).

(٢) أسنده عنه ابن الجوزي في «المُنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (١٠/ ٦٨)، وانظر: «تذكرة السامع والمتكلم» (ص ٥٥).

(٣) رواه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١/ ٦٠١).

وبالِ قصدِه، فتجيئُه النِّيَّةُ الصالحةُ كُلُّها أو بعضُها، وقد يتوبُ من نيَّتِه الفاسدةِ، ويَندَم»[١].

فأوَّلُ الآدابِ التي ينبغي على طالبِ العلمِ الحرصُ عليها الإخلاصُ لله عَزَّ وَجَلَّ.

الأدبُ الثاني: الصَّبرُ، فإنَّ الصبرَ واجِبٌ لكلِّ أمرٍ، وهو بمنزلةِ الرأسِ مِنَ الجسدِ، فمن لا صبرَ له لا بلوغ له، والعلمُ من أسنى المطالبِ التي لا تُنالُ إلا بالصَّبرِ وترويضِ النَّفس على السَّعي وتحمُّلِ المشاقِّ في سبيله؛ لا سيما وأنَّ غايته وثمراته جليلة، والصَّبرُ على العلم هو أعلى مراتب الصَّبر؛ لأنه صبرٌ على طاعة الله؛ التي هي أعلى مراتبِ الصَّبر الثلاثة[٢]؛ لما فيه من الحبس والعمل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٣].

فالصَّبرُ على الطَّلب، والمصابرةُ على الاستمرار، والمرابطةُ على المحل في العلم.

قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا سبيل إلى الفلاحِ بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يُفلح مَن أفلحَ إلا بها، ولم يفت أحدٌ الفلاحَ إلا بالإخلال بها أو بعضها»[٤].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٧).

(٢) انظر: «عدة الصابرين» لابن القيم (ص٦٤).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (٢٠٠).

(٤) تفسيره (ص١٦٢).

فعليك يا طالبَ العلم بهذا الأدبِ الذي جاء به القرآنُ، وحثَّ عليه في أكثر من تسعين موضعًا[١].

وجاء في السُّنَّةِ: «**وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع مِنَ الصَّبرِ**»[٢].

ومن الصَّبرِ: تكرار الأُصول، وملازمة مجالس العلم التي تُعزِّزُ من أصول كُلِّ فنٍّ، فإنَّ بها البناءَ والتأصيلَ لتدركَ التحصيل.

الأدبُ الثالثُ من آداب طالب العلم: أن يحرصَ غايةَ الحرصِ على التواضُعِ[٣]، فإنَّ طالبَ العلمِ كلمَّا تواضعَ رفعَهُ اللهُ ﷻ، وقد قال ﷺ: «...**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[٤].

ولا يجتمِعُ علمٌ مع كِبْرٍ، لأنَّ ضِدَّ التواضُعِ الكِبْر، والعلمُ والكِبْرُ ضِدَّان لا يجتمعان.

يقول الشاعر:

العِلـمُ حَرْبٌ للفَتى المتعالِي   كالسَّيلِ حَرْبٌ للمكانِ العَالي[٥]

السَّيْلُ يريدُ أنْ يصلَ إلى أعلى قمةٍ، وكذلك العلمُ يدفَعُ عنه التعالي، ولذلك قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «**لا يتعلَّمُ العلمَ مستحيٍ ولا مُستَكْبر**»[٦].

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) انظر: «إرشاد الطلاب إلى فضيلة العلم والعمل والآداب» لابن مانع (ص٤٩-٥٠).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٥) ذكره النووي في «المجموع» (١/ ٣٦)، وانظر: «شرح حلية طالب العلم» لابن عثيمين (ص٤٠).

(٦) أخرجه الدارمي في «سننه» (٥٦٨) و أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٨٧)، وعلَّقه البخاريُّ في صحيحه في كتاب العلم: (باب الحياء في العلم). =

فعلى طالبِ العلمِ أن يكونَ متواضعًا، فإنَّ التواضُعَ لا يظنُّ أنه نزولٌ وسُفْلٌ، بل هو عُلُوٌّ وارتفاعٌ، والمقصودُ منه أنْ تتواضعَ للحَقِّ وللخلقِ، اقْبَلِ الْحَقَّ مِن أيِّ كائن كان، ما دام أنه يهدي لك الحقَّ فاقبل، فاللهُ عَزَّ وَجَلَّ أقرَّ المشركين لَمَّا قالوا: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾[1]؛ أقرَّهم على ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾، وأنكرَ عليهم ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾.

والنبيُّ ﷺ أَقَرَّ أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا علَّمَهُ الشيطانُ آيةَ الكرسي التي هي سَبَبٌ لِحِرْزِهِ وحِفْظِه، فقال: «صَدَقَكَ وهو كَذُوبٌ»[2] ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ ينبغي له أن يقبلَ الحقَّ؛ لأنَّ الحقَّ مطيتُه.

ولذلك قيل لابن المبارك: «إلى متى تطلبُ العلمَ؟ قال: حتى الممات إن شاء الله»، وقال أيضًا: «لعلَّ الكلمةَ التي تنفعني لم أكتبها بَعْدُ»[3]، يعني: أنا أطلُبُ العلمَ إلى الوفاةِ.

وقال الإمام أحمد: «مع المَحْبرةِ إلى المَقْبرةِ»[4]، يعني: أنا ما أزالُ أكتبُ وأطلبُ العلمَ حتى أُنْقَلَ مِن هذه المَحْبرةِ إلى المقبرةِ، أي: القبر.

= ❋ قال ابن حجر في «الفتح» (١/ ٣٩٧): «وصله أبو نعيم في الحِلْيَةِ من طريق علي بن المديني عن ابن عيينة عن منصور عنه، وهو إسناد صحيح على شرط المصنف».

وانظر: «تغليق التعليق» (٢/ ٩٣).

(١) سورة الأعراف، الآية: (٢٨).

(٢) رواه البخاري (٢٣١١).

(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٣٣٩).

(٤) أسنده عنه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص ٣٠).

كنتُ مرَّةً عند الشيخ محمد العثيمين رحمه الله وكان يشرح «البرهانية»، وعند باب المناسخات ذكر الشيخُ رحمه الله طريقةَ الفَرَضيِّين في كيفيَّة الوصول إلىٰ أقل جامعة، فلمَّا انتهىٰ الشيخ قال أحدُ الطلَّاب: «هناك طريقة حسابية أخصر من الطريقة القديمة»، ففرَضَ الشيخُ مسألةً فأجابَ الطالب بسرعة: «الجامعة تكون كذا»، فوجدَ الشيخُ كلامَ الطالبِ صحيحًا، ثمَّ قال للطالب: «اكتُب لي كذا مسألة مع النَّتيجة لكي أراها وأقايِسَها»، وهذا ممَّا يدلُّ علىٰ تواضع الشيخ رحمه الله، ولو كان رجلًا غير الشيخ لربَّما قال: ما دامت النَّتيجة واحدة فأنا علىٰ طريقتي.

فهذا يدلُّ علىٰ أنَّ طالبَ العلمِ ينبغي له أن يتمثلَ التواضُعَ في تعلُّمِهِ واستفادتِه، ومتىٰ شَعَرَ في نفسِه أَنفَةً مِنْ قَبولِ الحقِّ فليَعْلَمْ أنها بدايةُ التعثُّرِ، فبكثرةِ ما يزيدُ مِن ردِّ الحقِّ يزداد بُعدُهُ عن الصواب.

الثاني من التواضع: أنْ يتواضعَ للخَلْقِ، ولا يترفَّعَ عليهم بسببِ العلمِ، فلا يقول: «أنا الحمدُ لله الآن جالستُ كبارَ العلماء وغيرَهم، وهؤلاء رعاءُ الناس أو هؤلاء عوامٌّ هوامٌّ أو غيره»، نقولُ: لا تقلْ هذا، فهذا بابٌ لإبليس يقذفُهُ في قلبِك لِيُبْعِدَك عن الخيرِ الذي دخلتَ فيه، والشيطانُ عدوُّ الإنسان، وقد توَعَّدَه بالإغواءِ، ولم يكن له خطوةٌ واحدةٌ يُهْلِكُ بها الإنسانَ بل له خطوات، ولذلك الله عز وجل قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[1]، ولم يقل: خطوة الشيطان، لِيُبيِّن أنَّ الشيطانَ يأتيه أكثر من مرَّة.

وذكَرَ بعضُ العلماء أنَّ الشيطانَ يأتي للإنسانِ حتىٰ من باب العلم[2]، فيقذفُ في قلبِه الشيءَ حتىٰ يُدْنِيَه ويُقَرِّبَه إليه ويُبْعِدَه عن الحقِّ والخلقِ.

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٨).
(٢) انظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص١٠٩).

كذلك الإنسان لا يقول: «أنا عندي دكتوراة، وهؤلاء طلابٌ بالأمسِ أُدَرِّسُهم واليوم يُجالسونني»، فيترفَّعُ عنهم، فهذا لا شكَّ أنه خِلافُ أدبِ طالب العلم، فطالبُ العلمِ نقول له: احفظ حقَّك بالآداب التي تأتي إن شاء الله، أما بالنسبة للتواضع فكُنْ متواضعًا مع الخلق كلِّهم.

الرابعُ من الآدابِ: أنْ يحرصَ على حُسْنِ الصُّحبة، لأنها مُعينةٌ لطالبِ العلم، فلا ينبغي لطالبِ العلمِ الذي مَنَّ الله ﷻ عليه بالرغبةِ في طلب العلم أن يُنفقَ الساعات الطِّوال في العلم ثم يُجالس مَن لم يكن له اهتمامٌ بالعلم، هذا كالذي يبني ويهدم، لكنك إذا جلستَ مع أناسٍ طلبة علم فإنهم يُعينونك ويُذكِّرونك المسائلَ و يشحذون همتك؛ لأنَّ طالب العلم يريدُ مَن يزوِّدُه بالمعلومات، ويدلُّه على بعض المسائل في مظانِّها، وكيفيةِ طرق الأبوابِ في المسائل وغير ذلك(١)، وهذا في الحقيقة يحتاجُ إليه الطالب، والطالبُ لا يمكن أن يتحصَّلَ على هذا كلِّهِ من الشيخِ فقط، لكن لابدَّ له من صحبةٍ.

والصحبةُ لها أثر في طباع الصاحب والمجالس، ولذلك قال النبيُّ ﷺ: «**مَثَلَ الجَليس الصَّالحِ والسوء، كحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِير...**»(٢).

وقال ﷺ: «**لا تُصاحِب إلا مؤمنًا، ولا يأكلْ طعامَك إلا تقي**»(٣).

---

(١) قال الشيخُ عثمان بن صالح القاضي ﷺ في وَصْفِ مذاكرتِه مع الشيخ ابن سعدي والشيخ محمد بن عبد الله المانع: «إنَّ فائدتنا فيما بيننا من المناقشة والبحث تعادلُ أو تُقاربُ الفائدة على مشايخنا»، انظر: «روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السِّنين» (١/ ٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (٥٥٣٤)، و مسلم (٢٦٢٨).

(٣) رواه أبوداود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسَّن إسناده الشيخ الألباني في تعليقه على «مشكاة المصابيح» (٥٠١٨).

وكذلك قال النبيُّ ﷺ في قصةِ الرَّجلِ الذي قتلَ مائةَ نفسٍ فقال له العالمُ: «**انطلقْ إلى أرضِ كذا وكذا فإنَّ بها أُناسًا يعبدون اللهَ فاعبدِ الله معهم...**»[(١)]؛ لأنهم يُعينونك ويَحثُّونك على الخيرِ والاستمرار على هذا الطَّريق، ومن الخطأِ في الحقيقةِ ما نُشاهِدُه من بعض طلاب العلم، تَجِدُ أنَّ عندَه رغبةً وحِرْصًا على العلم، لكنَّه يجلسُ في مجالس أناس لا يوجد عندهم رغبةٌ في العلم، فما يلبثُ إلا وتجِدُ أنَّ حماسَ العلمِ الذي كان متوقِّدًا في صدره يضعُفُ -إن لم يذهب- بسبب هذه المجالس وفضول المخالطة.

فنقولُ لطالبِ العلم: لا تنتظر المُعين الذي تأنَسُ به أو الصاحب الذي ترتضيه أن يَطرقَ بابك، بل أنت اطْرُقْ بابَه؛ لأنَّ الحاجةَ لك.

الأدب الخامس: أن يكون حَسَنَ الخُلُق، فعلى طالبِ العلمِ الحِرْصُ على أحسنِ الأخلاقِ، وقد قال ﷺ: «**إنَّ المؤمنَ ليُدركُ بحُسْنِ خلقِهِ درجةَ الصائمِ القائِمِ**»[(٢)].

وحُسْنُ الخُلُقِ منه ما هو جِبليٌّ، ومنه ما هو كَسْبيٌّ، ليس كما يقول بعض الناس: «إنَّ هذا مزاجي، أو هذه طريقتي، أو هذا الذي جعلني الله عليه»، يعني كأن يكونَ سريعَ الغضبِ أو عصبيًّا أو غيرَ ذلك، فنقول: هذا ليس بعذرٍ لك؛ لأنَّ حُسْنَ الخُلق كما يكون جِبليًّا يكون كَسْبيًّا، ولذلك تَجِدُ الشريعةَ في كثيرٍ من الأحاديث تُبيِّنُ وتُرغِّبُ في حسن الخلق، فلو لم يكن كسبيًّا ما رَغَّبَتْ فيه؛ لأن الناسَ مجبولةٌ على ما جُبِلَتْ عليه.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٣).

(٢) رواه أبوداود (٤٧٩٨) وصحح إسناده الشيخ الألباني في تعليقه على «المشكاة» (٥٠٨٢).

وممَّا يدلُّ على أنَّ الخُلقَ الحسنَ يكون فطريًّا أو طبعيًّا جبليًّا أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأشج عبد القيس: «**إنَّ فيك خصلتين يُحِبهما الله: الحِلْم، والأناة**»، قال: «يا رسول الله أنا أتخلَّقُ بهما أم اللهُ جَبَلَني عليهما؟»، قال: «**بل اللهُ جَبَلَك عليهما**»، قال: «الحمدُ لله الذي جبلني على خلَّتين يحبُّهما اللهُ ورسولُه»[١]، فإذًا الإنسان خلقه يكون طبعيًّا جبليًّا ويكون كسبيًّا[٢].

وكسبُ الخُلُقِ الحسَنِ يكون بِطَرَقِ أبوابِ كُلِّ صِفَةٍ فاضلَةٍ وكُلِّ خُلُقٍ حَسَنٍ؛ قال الحسنُ البصري فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] أنَّ الخُلُقَ الحسن يكون في ثلاثةِ أشياء، جمعها الحسنُ البصريُّ بقوله لما سُئِلَ عن حُسْن الخُلُق قال: «هو كَفُّ الأَذىٰ، وبَذْلُ النَّدىٰ، وطَلاقةُ الوجه».

كف الأذىٰ: أن تكفَّ أذاك عن الناس، قال ﷺ: «**المسلمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِه ويدِه**»[٤].

وذَكَروا عندَ النبيِّ ﷺ امرأةً من صلاتِها وقيامِها ولكنَّها تُؤذي جيرانها فقال: «**لا خيرَ فيها، هي من أهل النار**»[٥]، ممَّا يدلُّ على أنَّ الإنسانَ إذا كفَّ أذاه فإنه بإذن الله يُدرِكُ محاسنَ الأخلاق.

وقد ذكرَ النبيُّ ﷺ أنواعًا مِن الصَّدقةِ إلى أنْ قال: «**تَكُفُّ شَرَّكَ عن**

---

(١) رواه أبوداود (٥٢٢٥)، والترمذي (٢٠١١)، وابن ماجه (٤١٨٧)، وأصله في مسلم (١٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٤٧).

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٩)، وفي «سنن الترمذي» (٢٠٠٥) بسنده عن ابن المبارك أنه وَصَفَ حُسْنَ الخلق فقال: «هو بَسْطُ الوَجهِ، وبَذْلُ المعروف، وكَفُّ الأذىٰ».

(٤) رواه البخاري (١٠) و مسلم (٤٠).

(٥) رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٩) و صحح إسناده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٩٠).

الناس فإنها صدقةٌ منك على نفسِك»(١)، فكَفُّكَ شرَّكَ عن الناسِ صدقةٌ منك علىٰ نفسِك.

قد يقولُ بعضُ الناسِ: هل يوجد فينا شَرٌّ؟ فنقول: نعم، فالإنسانُ فيه شَرٌّ، ولذلك جاء في خطبة الحاجةِ(٢) أنَّ النبيَّ ﷺ يستعيذُ مِن شرورِ النَّفسِ، وقد قيل: إنَّ شرَّ النَّفسِ محصورٌ في أمرين: تثبيطٌ عَن طاعة، أو إزعاجٌ لمعصية، **فالتَّثبيط عن الطاعة** كأن تأتي لتفعل طاعةً فتقول لك: هذه ليست واجبة هذه كذا، وعند العِلْم تقول لك: «الحمدُ لله يوجدُ أناسٌ لهذا الأمر وأنت مشغول، وادْخُل في مجال آخر...»، أو: «أنت ثابرتَ وقدَّمْتَ وما حصَّلْتَ ما تريدُ...» فتثبِّطُكَ.

أمَّا **الإزعاجُ للمعصية**: فالنَّفس تزعج المكلَّفَ لاقتراف المعاصي والشَّهوات.

وقد قال الشاعر:

وفي الناس شَرٌّ لو بَدا مَا تعاشروا ... ولكنْ كَساهُ اللهُ ثَوْبَ غِطاء(٣)

فالإنسانُ مستورٌ بستر الله ﷻ عليه، فينبغي أنْ يُحَسِّنَ خُلُقَهُ بكَفِّ الأذىٰ، فإذا كنتَ طالبَ علم فلا تكنْ فاحِشًا ولا مُتَفَحِّشًا، بل كُنْ دَمِثَ الخُلُق، ينبسِطُ إليك مَن يُحادثك، ويَسْتوحِشُ عند فراقِك مَن يُفارقُك، وهذا لا شَكَّ أنه إذا لم يكن فيك شَرٌّ، أما إذا كنتَ صاحِبَ شرٍّ فما أن تذهبَ إلا ويحمدون الله ﷻ علىٰ فِراقك.

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٨) ومسلم (٨٤).

(٢) انظر في طُرقها وألفاظها «خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه» للشيخ الألباني.

(٣) ديوان أبي العتاهية (ص١٣).

فينبغي لطالبِ العلم أن لا يُؤذي النَّاسَ بيدِهِ ولا بلسانِهِ، وعليه أن يجتنِبَ الغَضَبَ، فالنبيُّ ﷺ لَمَّا جاءه أعرابيٌّ يقول: علمني شيئًا ولا تُكْثِر عليَّ لعلِّي أَعِيه- فتفرَّسَ النبيُّ ﷺ مِن خُلُقِه أنه سَرِيعُ الغَضَبِ- فقال له: «**لا تَغْضَبْ**» فرَدَّدَ مِرارًا، والنبيُّ ﷺ يقولُ له: «**لا تَغْضَبْ**»[(١)]، فكانت وَصية النبيِّ ﷺ لهذا الرَّجُلِ لأنها مُناسِبةٌ لحالِه.

وكذلك قال ﷺ: «**ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعة إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نفسَهُ عند الغضبِ**»[(٢)].

فبعضُ الناس يظنُّ أنَّ الإنسانَ عندما يغضبُ فإنَّ هذا دليلٌ على حَرَقانٍ في قلبِه على الحقِّ، وهذا ليس على كلِّ حال، لاشكَّ أنك إذا غضبتَ لله ﷻ فإنَّ الله يُثيبك، لكن هذا ليس معناه أن تُسرِع في الغضبِ مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، بل أَدِّبْ نفسَك وروِّضْها، فالنبيُّ ﷺ قال: «**ليسَ الشَّديدُ بالصُّرَعة إنَّما الشَّديدُ الذي يَمْلِكُ نفسَهُ عند الغضبِ**».

وكذلك لا تكن فَحَّاشًا في القولِ، وعليك بالبعدِ عن الغِيبةِ والنَّميمةِ، فإذا سُئِلْتَ عن أشخاصٍ رُدَّ هذا السؤالَ إلى مَنْ هو أعلم منك، وكُلَّما حَرِصْتَ على سلامةِ نفسِك فهو خيرٌ لك، فأعراضُ الناسِ ليست بالهيِّنةِ، وأشدُّها أعراضُ أهلِ العلم، ولذلك قال ابن عساكر رحمه الله: «إنَّ لحومَ العلماءِ -رحمةُ اللهِ عليهم- مسمومةٌ، وعادةُ الله في هَتْكِ أستارِ منتقصيهم معلومةٌ؛ لأنَّ الوقيعةَ فيهم بما هم منه براء أمرُهُ عظيمٌ، والتناوُلُ لأَعراضِهم بالزُّورِ

---

(١) رواه البخاري (٦١١٦)، والترمذي (٢٠٢٠)، واللفظ له، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٦٨٨).

(٢) رواه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩).

والافتراءِ مرتَعٌ وَخِيم»(١)، فتَجِدُ أنه يُخْتَمُ له بخاتمةِ سُوءٍ -والعياذ بالله-، والأعمالُ بخواتيمها.

وأمَّا بَذْلُ النَّدى: وهو الكَرَمُ، فينبغي لطالبِ العلمِ أن لا يكون بخيلًا بل يكون كريمًا جَوادًا، فله في رسول الله ﷺ الأسوةُ الحسنةُ، فهو يقتبسُ مِنْ مِشكاةِ النبيِّ ﷺ، والنبيُّ ﷺ أكرمُ الناس.

قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «كان رسولُ الله ﷺ أجودَ الناس بالخيرِ، وكان أجودُ ما يكونُ في شهرِ رمضان، إنَّ جبريلَ عليه السلام كان يلقاه في كل سنة في رمضان حتى يَنْسَلِخَ، فيعرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآنَ، فإذا لقيهُ جبريلُ كان رسولُ الله ﷺ أجودَ بالخيرِ من الرِّيحِ المُرْسَلة»(٢)، فينبغي لطالب العلم أن يكون جوادًا كريمًا بجاهِه ومالِه ونفسِه فكلُّها من بذل النَّدى.

كذلك من حُسْنِ الخُلُقِ: **طلاقةُ الوَجْهِ**، فطلاقةُ الوجه أمرٌ مطلوبٌ، ولذلك قال ﷺ: «**لا تَحْقِرَنَّ من المعروفُ شيئًا، ولو أن تَلقَى أخاك بوَجْهٍ طَلْقٍ**»(٣)، فطالِبُ العلمِ ينبغي أن يكونَ هو أول متمثِّلٍ بهذا الخُلُقِ الذي رَسَمَهُ النبيُّ ﷺ، ودَلَّ عليه، وكان ﷺ يتمثَّلُ هذا الخُلُقَ؛ فقد حَدَّث عنه الصحابةُ أنه ﷺ كان دائمَ البِشْر، كثيرَ التبسُّم ﷺ(٤).

---

(١) «تبيين كذب المفتري» (ص٢٩)، وانظر تعليقًا عليها ليوسف ابن عبد الهادي الحنبلي في «جمع الجيوش والدساكر...» (ص١١٣).

(٢) رواه البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٤) انظر: «الشمائل» للترمذي: باب ما جاء في ضَحِكِ رسول الله ﷺ، وباب ما جاء في خُلُقِ رسول الله ﷺ.

وبعضُ الناس يكون عنده تصوُّرٌ أنَّ طالبَ العلم ذو شَخْصِيَّةٍ، ويظنُّ الشَّخْصِيةَ بالعبوس وهذا ليس صحيحًا، فكُنْ مُنبَسِطَ الوَجْهِ مسرورًا تَجِد أثَرَ هذا على الناس، فحينما يأتي سائلٌ يسألُ ويراكَ عَبُوسًا ربَّما ينسى سُؤالَهُ، ولكن حين يراك مسرورًا وتَنْبَسِطُ معه في الكلام، ولا تَعِيبُ عليه إذا سألَ سؤالًا خطأً، أو إذا تعذَّرَ بعُذْرٍ غير مناسِبٍ، فستجده ينبسطُ إلى خُلُقِكَ(١).

حدَّثَني أَحَدُ الإِخْوةِ أنه ذَهَبَ إلى شخصٍ يريدُ أن يُصَحِّحَ قراءَتَه عليه فقال له: «اقرأ»، يقول: «فقرأتُ وكنتُ مريضًا في ذلك اليوم، فكان بعضُ الخطأِ في قراءتي»، فقال له: «ماذا بك اليوم؟! قراءَتُك فيها أخطاء!»، قال له: «أنا مريضٌ، ومَعِدتي تُؤْلمني»، فقال له: «أنت تتكلَّمُ مِن فمك أم مِن مَعِدتك؟!»، فهذا الردُّ غيرُ مناسب، والرَّجُلُ قد شَكَى له، فكان يجبُ عليه أن يكونَ لَيِّنَ الجانبِ معه، فالرجُلُ اعتذَرَ وكان صادقًا، فصار هذا بابًا للاستهزاء بِهِ والسخرية منه، فلا ينبغي مثل هذا، فإذا أنعمَ اللهُ على الإنسانِ بعلمٍ فلا بدَّ أن يكونَ لَيِّنَ الجانبِ، ولا يُكْثِرَ على الطالبِ لئلا يَسْتَوْحِشَ فيتركَ التعلُّمَ.

كذلك على طالبِ العلمِ: أن يكون حريصًا على المروءة، فالمُروءَةُ أمرٌ مطلوبٌ، لا سيَّما مِن طالب العلم، فما هي المروءة؟

قالوا في تعريف المروءة: هي فعلُ ما يُجَمِّلُ ويَزِينُ، وتركُ ما يُقَبِّحُ ويَشين(٢)، لكنها تختلف باختلاف البيئات، فمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعَدُّ في جانبه أشياء من المروءة وهي في بلدٍ آخر ليستْ مِنَ المروءةِ بل هي أمرٌ عادي، ولذلك كان في الصَّدرِ الأوَّلِ عند بعض المحدثين خروجُ الإنسانِ بدونِ عِمامةٍ ممَّا يُخِلُّ بالمروءة

(١) انظر: «أخلاق العلماء» للآجري (ص٧٦).
(٢) انظر في المروءة: «المروءة» لابن المرزبان (ت ٣٠٩)، و«مدارج السالكين» (٣/ ١٠٤).

فيتركونَهُ ولا يحدِّثُون عنه، لكن مثلًا في بعض البلدان الآن هذا أمرٌ عاديٌّ، فيكون عند أولئك في بيئتهم أنَّ هذا يُراعَى، وعند هؤلاء أنَّ هذا ليسَ فيه شيءٌ ولا يُخِلُّ بالمروءة.

وكذلك في بعض البلدان تَجِدُ أنَّ هناكَ أَلبِسَةً تُعَدُّ ممَّا يَلْبَسُهُ الناسُ عامَّة، وتَجِدُها في بعض البلدان مُخِلَّة بالمُروءة، مثلًا: في البلدان الأوروبيَّة حتى في بعض البلدان العَربيةِ قد تأثروا بلُبْسِ البِنْطالِ وأَصْبحَ زِيًّا لهم، وربَّما يُلْزَمُون به في بعضِ الجِهاتِ الرَّسميَّةِ، ولا يستطيعونَ مراجعةَ بعض الجِهاتِ إلا بهذا الزِّيِّ، فلا يُمْكِنُ أن تُؤاخِذَ هذا الإنسان بهذا الزِّيِّ.

صحيحٌ نقولُ: نَوَدُّ أن يكونَ على الزِّيِّ الشَّرعيِّ، لكنَّه أحيانًا يَجِدُ مضايقةً، وهذه المضايقة لا يستطيعُ أن يَشْعُرَ بها من هو قادمٌ مِن بلدٍ لا يُوجَدُ بها مثل هذا، لكن في بعضِ البُلدانِ يُعَدُّ هذا في حقِّهِ مَعِيبًا، يعني لو رأيتَ في المملكة أو الكويت أو دولِ الخَليجِ أَحَدًا مَعْروفًا بالعلمِ يَخْرُجُ بالبِنطالِ والقَميصِ، لكان هذا أمرًا يُنْقِصُهُ، فلا ينبغي للإنسان أن يَخْرِمَ مروءتَه.

وعليه أنْ يُراعيَ البيئةَ التي يعيشُ فيها؛ لأنَّ فيها مِحْورَ مُروءَتِه، فلا يَخْرِمُها بقوله: «لا شأنَ لي بالنَّاس»، فهذا مبدأ غيرُ صحيحٍ، وليس بشرعي، فالنبيُّ ﷺ تركَ هَدْمَ الكعبة وإقامَتَها على قواعد إبراهيم خشيةَ أن يتحدَّثَ الناسُ، وقال لعائشة رضي الله عنها: «**لولا حِدْثانُ قومك بالكُفْرِ لفعلتُ**»(١)، وقال ﷺ في قتل بعض المنافقين: «**لا يتحدَّثُ الناسُ أنَّ مُحمَّدًا يقتلُ أصحابَه**»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٥٨٣) و مسلم (١٣٣٣)

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٧) ومسلم (٢٥٨٤)

فالناسُ يتحدَّثُون ولا يعرفون حقائقَ الأمور، فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يقول: «لا شأن لي بالناس» أو: «هذا شيءٌ أباحَهُ الله لي»، فنقولُ: نحنُ لا نتكلَّمُ عن الحِلِّ والحُرمةِ، ولكن نتكلَّمُ علىٰ فعلِ المُروءَةِ.

فإذًا ينبغي لطالبِ العلمِ أنْ يكونَ علىٰ مُروءَةٍ، وأن لا يخرِمَ المُروءات.

السادسُ مِنَ الآدابِ لطالبِ العلمِ والتي ينبغي أن يحرص عليها في مرحلة الطلب: الحرص علىٰ انتقاءِ الشَّيخِ، ولا يكتفي بقراءةِ الكتابِ[1]، وبسَماعِ الأَشْرطةِ، لا شكَّ أنَّ الكُتُبَ فيها عِلمٌ، إذا كانت كتبَ أهلِ علمٍ معروفين بالاستقامة، والأشرطةُ فيها علمٌ، لكن الشيخُ لا بدَّ منه.

فما فائدةُ الشيخ؟

أولًا: الشيخُ يَختصِرُ لك العلومَ، فتجِدُ أنك أحيانًا تبحثُ في مسألةٍ فيَطول عليك المقامُ، فيأتي الشيخُ ويُوضِّحُ لك هذه المسألةَ بطريقة سهلة ومختصرة فيقولُ لك: «المسألةُ فيها أربعةُ أقوال، الأول كذا، والثاني كذا، والثالث، والرابع يتفرع منه ثلاثة أقسام»، فيُسهِّلُ لك ما تبحثُ عنه ربَّما بسَنَةٍ، فهذه أوَّلُ الفوائد: **اختصار العلوم**[2].

---

(١) انظر: «الموافقات» لأبي إسحاق الشاطبي (١/ ١٠٠)، و«عوائق الطلب» للشيخ عبد السلام بن برجس آل عبد الكريم رحمه الله (ص٢٠).

(٢) قال الشيخ سليمان ابن حمدان في ترجمة شيخه سعد بن حمد بن عتيق: «إذا حصل له إشكال في مسألة أثناء الدرس لم يتجاوزها حتىٰ يزول ذلك الإشكال، وربَّما بعثَ من يُحضرُ له الكتب التي تكون مظنَّة لذلك، ووقَّف القارئَ، فإذا لم تنحل قطع الدرسَ، وقد شاهدت ذلك منه، وكان لا يترك الطالبَ يقرأُ عليه من عبارات الفقهاء أكثر من أربع مسائل أو خمس، ثمَّ يشبع الكلام عليها منطوقًا ومفهومًا، حتىٰ لا يترك في نفس الطالب حاجةً إلىٰ السؤالِ عن شيءٍ». «تراجم لمتأخري الحنابلة» (ص١٠٧).

الثاني: **أنَّ الشيخَ تكتسبُ منه الأدبَ**، فالشيخُ الذي يكونُ أمامَكَ يُنَبِّهُكَ علىٰ الخطأِ ويُرشِدُكَ إلىٰ الصَّوابِ، فتستفيدُ منه أكثرَ مِن إنسان بينك وبينَه حاجِزٌ، كالأشرطةِ، أو كتابٍ ألَّفَهُ ولا تدري عن سُلُوكيات مؤلِّفه.

ولذلك ما استفدْناهُ مِن مُصاحبةِ المشايخ أعظمُ بكثير ممَّا استفدناهُ مِن المادَّة العلميةِ، فالمادةُ العلميةُ صحيحٌ أنَّها تُدرَكُ من الشيخِ ومن الكتاب أو الشَّريط، لكن الذي تدركُهُ من التلقِّي عن الشيخ ليس كالذي تدركُهُ من الكتِبِ، من ذلك: كيفيةُ إعطاءِ الدَّرسِ، والحرصُ علىٰ الوقتِ، وكيفَ يعاملُ الطُّلابَ، وكيفيةُ شَرْحِه، وكيفيةُ مُعامَلَتِه للنَّاس.

وقد مَنَّ الله ﷻ عليَّ بملازمة الشيخ ابنِ جرَّاح[(١)] رَحِمَهُ اللهُ -وهو من علماء الكويت الكبار- وآخر مَن توفِّي منهم، فهذا العالِمُ تستفيدُ من سَمْتِه وحُسْنِ خُلُقِه كما تستفيدُ من علمِه، وسكينتِه ووَقارِه، وإذا جاء لك بالحديثِ أو الكلامِ تستفيدُ منه، و أحيانًا تكون مسألةٌ ويُجيبُ عنها، وتجدُهُ في الدَّرسِ المُقبل يعلق أو يوضح الجواب إن كان فيه شيءٌ مما يستدرك، ممَّا يدلُّ علىٰ مُراجعتِه، ولا يكتفي بالجوابِ السابق.

وكذلك الشيخُ محمدُ بنُ عُثيمين رَحِمَهُ اللهُ مَنَّ الله ﷻ عليَّ بمُلازمتِه، واستفدتُ من خُلُقِه الشيءَ الكثيرَ، ومعاملتِه مع النَّاس، لا سيَّما أنَّه كان واجهةً للنَّاس، والناسُ يقصدونَهُ في حوائجِهم الدِّينيةِ والدُّنيويةِ؛ جاءَهُ رَجُلٌ في أحدِ الدُّروسِ الصَّباحيةِ -وكانت مِنَ السَّاعةِ الثامنةِ حتَّىٰ الحادية عَشرةَ، وكانت

(١) هو الشيخُ العلامةُ محمد بن سليمان آل جرَّاح رَحِمَهُ اللهُ (ت١٤١٧هـ) انظر في ترجمته: «عالم الكويت وفقيهها وفرضيُّها الشيخ محمد بن سليمان آل جرَّاح سيرته ومراسلاته وآثاره العلمية» للشيخ د. وليد المنيّس و«علماء نجد» للبسام (٥/ ٥٤٩).

مُقَسَّمةً علىٰ خَمْسَةِ دروس- جاءَهُ هذا الإنسانُ ويَبدُو أنه عابِرُ سبيلٍ وليسَ مِنْ أَهلِ البَلدةِ، عندَهُ مسألةٌ في الطَّلاقِ، وكان يصعبُ عليه أن ينتظِرَ إلىٰ الظُّهرِ، فيبدُو أنَّه ذَهَبَ إلىٰ بيتِ الشَّيخِ يَسْأَلُ عنه، فقالوا له: «إنَّه في المَسْجِدِ».

فجاءَ للشيخِ وهو في المسجدِ، وكُنَّا مُتَحلِّقِين علىٰ الشَّيخِ، وكان يمشي يَمِينًا ويسارًا، وكان الشَّيخُ وقتَ الدَّرسِ لا ينظُرُ إلىٰ أحدٍ، حتىٰ الطُّلاب كانوا في أَوَّلِ الأَمْرِ يُقاطِعُون الشيخَ ويسألونَهُ أثناءَ الدَّرْسِ، ثُمَّ مَنَعَهم مِن ذلك؛ لكي لا يَقْطَعُوا عليه تسلسل أفكارِه، وتكون الأسئلَةُ في آخر الدَّرس.

فصارَ الرَّجُلُ يَمْشِي وكُلَّما أرادَ أن يسأل الشيخَ لا يلتفِتُ إليه، فلمَّا رَأَىٰ الشيخُ إلحاحَ الرَّجُلِ قال له: «ماذا تُريد؟»، قال: «عندي سُؤَالٌ»، قال الشيخُ: «نحنُ في دَرْسٍ وأنا لا أَمْلِكُ الوقتَ، إنَّما يَمْلِكُهُ الطُّلابُ، فإنْ هم أَذِنُوا أَجَبْتُكَ، وإلا فالحَقُّ لهم»، فقال الرَّجُل: «هل تَسْمَحُون لي؟»، قلنا: «نَسْمَحُ»، فأجابَهُ الشَّيخُ.

ومَرَّةً كُنْتُ أَمشي معه في الطَّريقِ إلىٰ مَنْزِله، فرأَينا بعضَ القِطَطِ يتعاركون، فما زالَ معهم حتَّىٰ فرَّقَهم.

ومرَّةً كان رَحِمَهُ اللَّهُ ذاهبًا إلىٰ المسجد وسَكَنِي في امتدادِ شارِعِه، ومنزِلُه يَبْعُدُ عن المَسْجِدِ كيلًا واحدًا تقريبًا، والشيخُ يذهبُ ماشِيًا، ويَرْجِعُ ماشِيًا، فكان يأتي من بيتِه إلىٰ المسجدِ حافِيًا غيرَ لابسٍ نعليهِ في بعضِ أحيانِه، خاصةً في صلاةِ الفَجرِ في الصَّيفِ، وأحيانًا في بعضِ الفُرُوضِ، وكانت عُنَيزة مركزًا تِجاريًّا بالنِّسبةِ للبُلْدان حولَها باعْتِبارِها بلدةً كبيرةً، ويأتي الناسُ إليها يَشْتَرون منها، فقال بعضُ الطُّلاب للشَّيخ: «يا شَيْخ! أنتَ تأتي مِنْ بيتِكَ،

وبيتُكَ بَعِيدٌ، وطَرِيقُك علىٰ السُّوقِ، فبعضُ الذين في السُّوقِ يرونكَ حافِيًا ويتكلَّمُونَ بما لا يَلِيقُ، فإنَّهم لا يعرفونَ مَقامَك، وبالذَّاتِ الناس الغُرباء الذين يأتونَ للتَّسَوُّقِ».

فقال الشيخُ: «لا بأس، دَعْهُم لعلَّهم يسأَلونَ فيَعْلَمون أنَّه مِنَ السُّنةِ»، يعني: الاحْتِفاء؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ ثبتَ عنه أنه كان يحتفي، وأمرَ أصحابَهُ أن يَحْتَفُوا ساعةً، ويَحْتَذُوا ساعةً[١].

كُلُّ هذا مِنْ بابِ نَشْرِ العلم، وهذا ممَّا نستفيدُهُ مِنَ الشَّيخ.

وكذلك طريقَتُهُ في معاملتِه الطُّلابَ وغيرَهم، وحتَّىٰ في مُعالجَةِ الأُمُورِ التي تَحْدُثُ بينَ الطُّلابِ، وكان مُربيًّا في الحقيقةِ، كان كُلَّ يومِ أربعاء يُقِيمُ واحِدًا مِنَ الطُّلَّابِ بجانِبِه ويقول له: «أَلْقِ كَلِمَةً علىٰ الطُّلابِ»، لماذا؟ «مِنْ أَجْلِ أنْ تتعلَّمَ إذا دَخلْتَ المساجِدَ كيفَ تتكلَّمُ مع النَّاس»، فكان يُخَرِّجُ طُلابَ علمٍ وخطباءَ، وربَّما عَقَدَ عَقْدَ النِّكاحِ للنَّاسِ وهو يَمْشِي، ويَقْضِي بينَهم في حُقُوقٍ كثيرةٍ، فهذه من الأشياء التي تُستفادُ من الشيخ.

وقد يحصُلُ في الدُّروس المسجلة حذف بعض الأشياء الجانبية التي وقعت في الدرس أو حصلت قبل التسجيل أو بعده، وهذه يعرفها من حضر دروس الشيخ ابن عثيمين في مسجده، فحضور دروس الشيخ والاستفادة منه ليس كالاستماع للأشرطة[٢].

---

(١) في «سنن أبي داود» (٤١٦٠) عن فَضَالَةَ بنِ عُبيد رضي الله عنه قال :«كان النَّبيُّ ﷺ يأمُرنا أن نَحْتَفِيَ أحيانًا»، وانظر: «السلسلة الصحيحة» للشيخ الألباني (٥٠٢).

(٢) للفائدة: انظر كلام الشيخ ابن عثيمين رحمه الله فيما يتعلّق بنقل أشرطته الصوتية إلىٰ مطبوعات في «لقاءات موكب الدعوة» للمشوّح (ص٥٥).

الأمرُ الثالث ممَّا تستفيده من الشيخ: **إرشادُك في أَيِّ العُلومِ تبدأُ**، وهذا أمرٌ مُهِمٌّ لطالبِ العِلْمِ، ولذا تَجِدُ بعضَ النَّاسِ يتَّجهونَ لطلبِ العِلمِ ثُمَّ يتركُ طلبَ العلمِ، والسببُ أنه لا يدري بأيِّ العلوم والكتبِ يبدأُ.

لكنَّ الشيخَ يوجِّهُكَ ويقولُ لك: «اقْرأْ هذا الكتاب»، «ابدأْ بصِغارِ العلمِ قبلَ كِبارِه»، «اسْتَمِرَّ في هذا فتستفيد، ثُمَّ تَنْتَقِلَ إلى الكتابِ الفُلاني».

في أوَّلِ أمرِ الطَّلبِ يُوجَدُ تَخَبُّطٌ، أوَّلُ ما قَدِمْتُ على الشَّيخِ ابنِ جَرَّاح كانوا يقرؤون عليه «دليلَ الطَّالبِ»، دَخلتُ مع الطُّلابِ فقلتُ: «يا شيخ لماذا لا نقرأُ «المُغني» لابن قدامة ؟

فقال الشيخُ: « «المُغني» ليس للتَّدريس، ولكنَّه كتابٌ تقرأُ فيه أو تبحثُ في مسألةٍ، فهو كتابُ مَرْجع»؛ **لأنَّ الكُتُبَ على قِسْمين**:

* **كتب تُسَمَّى أَصُولًا**، فهذه ينبغي لطالبِ العلمِ أنْ يقرأَها، وكُلُّ فَنٍّ له أُصولُهُ؛ في العقيدةِ، وفي الفِقْهِ، وفي الحَدِيثِ، وفي أُصولِ الفِقْهِ، وفي القواعِدِ الفِقْهيةِ، وفي النَّحْوِ، هذه كُلُّها لها أصُولٌ يبدأُ بها الطالبُ.

* **ويوجدُ كُتُبٌ تُسَمَّى مَراجِع**، هذه يرجِعُ إليها الطَّالِبُ ولا يَسْتَغْنِي عنها، ويَرْجِعُ لها في مَباحِثِها الكِبار، وفي الاسْتِطْرادِ، وفي النَّظَرِ في المذاهِبِ الأُخْرىٰ، وهذه لا تُدَرَّسُ لكنَّها تُقرَأُ.

كذلك مَرَّةً سألني الشيخُ فقال: «ماذا دَرَسْتَ؟»، فقلت: «إِحْكامُ الأَحْكام» لابن دَقِيقِ العِيدِ، فقال: «غيره؟»، فذكرتُ لهُ كُتُبًا لا تَصْلُحُ للدِّراسَةِ، وإنَّما هي كُتُبُ قِراءة، فبيَّنَ لي رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ قِراءَتي لِمِثلِ هذه الكُتُبِ -وإن كانت كُتُبًا طيبةً-،

لكن كونُكَ طالبَ علمٍ في بِدايَتِك وتقرأُ مثلَ هذه الكتبِ التي تفرِّعُ لك المذاهبَ غير مناسبةٍ لمرحلتك، وعليكَ أنْ تضبِطَ قولًا واحِدًا، ثُمَّ بعدَها تَضْبِط بقيةَ الأَقْوالِ الأُخرىٰ، فالشيخُ تستفيدُ منهُ أنَّه يرسُمُ لك مَنْهَجِيَّةً في طلبِكَ العلمَ مِنْ غيرِ تَخَبُّطٍ.

الأمرُ الرَّابِعُ الذي تستفيدُه مِنَ الشَّيخ: أنه يُصابِرُك ويُصَبِّرُك علىٰ العِلْمِ؛ لأنَّ الإنسانَ لو أنَّه قرأَ وصارَ يتعلَّمُ منَ الكُتُبِ أو يَسْمَعُ الأَشرطةَ فإِنَّه ربَّما يَسْأَمُ ويترُكُ، لكن كونُ الشَّيخِ يُدَرِّسُكَ ليلَهُ ونهارَهُ، ويُعَلِّمُكَ وهو صابِرٌ فلماذا لا نَصْبِرُ نحنُ؟!

فتَجِدُ أنَّه يُصَبِّرُك، وبينَ وقتٍ وآخرَ يُعطيكَ مَوْعِظَةً كالصَّبرِ علىٰ طلبِ العِلْمِ، وتَحَمُّلِ مشَاقِّهِ وأعبائِه، فيستفيدُ طالبُ العلمِ مِنْ هذه المُصابرةِ.

ويوجدُ كتابٌ اسْمُهُ: «الأَجوبةُ النَّافِعَةُ»(١) فيه مُراسَلاتُ الشَّيخِ عبدِ الله ابن عَقِيل للشيخِ عبدِ الرحمن بنِ سَعْدي رحمهما الله، والشيخُ عبدُ الله بنُ عَقِيل مِنْ طُلَّابِ الشَّيخِ عبدِ الرَّحمن بن سَعْدي، عُيِّنَ في القَضَاءِ في جَنُوبِ المملكةِ في منطقةٍ اسْمُها: «أبو عريش»، هذا في أولِ نشأَةِ المَمْلكةِ.

وكان الشيخُ محمدُ بنُ إبراهيمَ يتولَّىٰ تَعْيينَ القُضاةِ، وكُلُّ طالِبِ عِلْمٍ يَرىٰ فيهِ نُبْلًا ونَباهَةً يُولِّيه القضاءَ مُباشرةً؛ لأنَّ هذه مرحلة قِيام دَوْلةٍ، وإذا لم يتولَّ القضاءَ طلابُ العلم فمَن يتولَّاه؟ وكان الشيخُ يُوَلِّي القضاءَ مَنْ يراه أهلًا له مِنْ طُلَّابِ العِلمِ.

---

(١) «الأَجْوبةُ النَّافعةُ عن المسائِلِ الواقِعَةِ، وهي الرسائلُ الشَّخصيةُ العِلميةُ المُرْسَلةُ مِنَ الشَّيخِ ابن سعدي إلىٰ تلميذِه الشيخ ابن عَقِيل» اعتنىٰ به: هيثمُ الحدَّاد، طبع دار ابن الجوزي.

والشَّيخُ عبدُ الله العقيل يومَ تولَّى القضاءَ كان عُمُرُه -تقريبًا- اثنتين وعشرين سنةً[١]، ومعلومٌ أنَّ القضاءَ ليسَ أمرًا هَيِّنًا؛ ففي الحديث: «**مَنْ وَلِيَ القضاءَ فقد ذُبِحَ بغيرِ سِكِّين**»[٢].

وفي الحديثِ الآخَرِ: «**القُضاةُ ثلاثةٌ: واحِدٌ في الجنَّةِ، واثنان في النَّار**»[٣]، يعني الثلثين في النَّار، فيخشى الإنسانُ أنْ يكونَ منهم.

قالَ أَحَدُ أبناءِ الشَّيخِ ابن سَعْدي ما معناهُ: «في سنة ١٣٦٦ حصلت على الوالد أزمةٌ قويةٌ أَثَّرَتْ على نفسِهِ وعلى صِحَّتِهِ، وحاصلُ هذه الأزمة: وصولُ خبرٍ للوالدِ بأنَّه سوف يُعيَّنُ قاضيًا شرعيًّا في عُنيزةَ فتغَيَّرَ والدي تغيُّرًا تامًّا، فما كان والدي الذي أَعْرِفُهُ، فصارَ أول ما بدأَ معه يُكَلِّمُ وُجَهاء عُنَيزةَ مِنْ أَجْلِ يُكَلِّمونَ المَلِكَ أن يُعْفِيَه مِن ذلك، وكُلُّ ذلك خَوْفًا من هذه التَّوليةِ، وصار بعدَ ذلك أَكْلُهُ ضَعِيفًا وشربُهُ قليلًا، كُلُّهُ بسبَبِ أنَّه سَمِعَ خبرًا أنَّهم سوفَ يُوَلُّونَه القضاءَ، تطوَّرَتِ الحالةُ وصار يهذُرُ معَ نفسِهِ بعضَ المرَّات ويتكلَّمُ، ووالدي لم يكن ذلك مِنْ طَبْعِهِ، ثُمَّ تطوَّرَتِ الحالةُ فخَشِيَ أنْ يأتِيه الأمرُ وأهلُ عُنَيزةَ لم يُكلِّموا المَلِكَ فرَحَلَ إلى مَكَّةَ، كُلُّهُ بسبَبِ هذا الخبرِ، إلى أنْ جاء فَرَجُ الله وأُعْفِيَ مِنَ القضاءِ، ورَجَعَ إلى عُنَيزةَ مِنْ مكَّةَ»[٤].

---

(١) انظر: «فتح الجليل في ترجمة وثَبَتِ شيخ الحنابلة عبدالله بن عبدالعزيز العقيل» (ص٦٩).

(٢) رواه أبوداود (٣٥٧١)، والترمذي (١٣٢٥)، وابن ماجه (٢٣٠٨)، وصححه الشيخ الوادعي في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١٣٦٢).

(٣) رواه أبوداود (٣٥٧٣)، والترمذي (١٣٢٢)، وابن ماجه (٢٣١٥)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٨/ ٢٣٥).

(٤) انظر: «مواقفُ اجتماعيةٌ مِن حياةِ الشَّيخ العلامةِ عبد الرحمن بن ناصر السعدي» (ص٨٣-٨٩).

الحاصِلُ: أنَّ الشَّيخَ عبدَ الله رحمه الله عُيِّنَ في القضاء، وكان دائمًا يُراسِلُ الشيخَ عبدَ الرَّحمن في مسائلَ، وربَّما أَقْضِيَة تحصُلُ معه، ويراسِلُهُ دائمًا، فهذا الكتابُ نافِعٌ جِدًّا، وأنا أَنْصَحُ طالبَ العِلمِ أنْ يَقْرَأَه؛ لأنه يُعْطِي تَصوُّرًا أوَّلًا عن التِّلميذِ، وكيفَ يكونُ على جانِبٍ كَبيرٍ مِنَ الخُلُقِ، وكذلك: تَصوُّرًا عن الشيخِ، وكيفَ يتوَدَّدُ للطَّالبِ، ودائمًا يَخْتِمُ الشيخُ عبدُ الرحمن رحمه الله رسائلَه بـ: «مُحِبُّكُم عبدُ الرَّحمن بنُ ناصِرٍ السَّعدي»، مع أنَّه شيخُهُ، فدائِمًا يراسِلُهُ في بعضِ المسائِلِ.

فلَمَسَ الشيخُ مِنْ تلميذِه كأنَّ به سآمَةً ولسان حاله يقول: «أنا الآن في القضاءِ ولا زِلْتُ أسألُ الشَّيخَ، إلى متى أسألُ الشيخَ؟! فمعنى ذلك أنِّي لا أصلُحُ أنْ أكونَ قاضِيًا»، فأَرْسَلَ له رسالةً يسألُهُ عن مسألةٍ، ولَمَسَ منه هذا الأمرَ.

فَرَدَّ عليه الشيخُ عبدُ الرحمن برسالة لطيفة، صَدَّرَها بالثَّناء على اللهِ بما أَنعمَ اللهُ عز وجل عليهم، وأنَّهم بخيرٍ وصِحَّةٍ وعافِيةٍ، ويُوصِيهِ بكَثْرَةِ المُداوَمَةِ على طَلَبِ العِلْمِ، ويُصبِّرُه عليه، ثُمَّ أَرْشَدَه بكلماتٍ مِنْ أجمل ما قرأتُ، يقول الشيخ: «ولا يَمْنَعُكَ ما ترى مِنْ عَدَمِ حُصُولِ المَقْصُودِ عاجِلًا؛ فإنَّ السَّعيَ معَ النيَّةِ الصَّالحَةِ لابُدَّ أن يكون لهما ثمراتٌ، والصَّبرُ لابدَّ منه في جميعِ الحالات، وآفة العمل الضجرُ والسآمةُ، وأعظمُ جالبٍ لهما عدمُ الاحتساب»(١).

لأنَّ الإنسانَ إذا كان غيرَ مُحْتَسِبٍ في عملِه يأتيه الضَّجَرُ والسَّآمَةُ، وإذا جاءَهُ الضَّجَرُ والسَّآمَةُ ترَكَ العِلْمَ.

---

(١) «الأجوبة النافعة» (ص٣٨).

وهذه اللَّطافةُ مِنَ الشَّيخِ عبدِ الرحمن تربِطُ كيفيةَ الاستفادةِ مِنَ الشَّيخ بأوَّلِ أَدَبٍ وهو: «وُجُوبُ الإِخلاص»؛ لأنه قال: فإِنَّ النيةَ الصَّالحة لابُدَّ لها من ثَمَرات.

قال: «والصبرُ لابدَّ منه في جميعِ الحالات»، يعني: لابدَّ لك أنْ تصبِرَ، سواءٌ كنتَ في رَخاءٍ أو في ضِيقٍ، في سَرَّاءَ أو في ضَرَّاءَ، لابدَّ للإِنسان أن يَصْبِرَ، وكلُّ عاقلٍ لابدَّ أن يَصْبِرَ؛ لأنَّه في الحَقِيقةِ لا يُوجَدُ مَجالٌ لتضجُّرِ الإنسانِ، وتسخُّطه علىٰ قَدَرِ الله؛ لأنَّ الله هو الذي قَدَّرَهُ، وهو متمُّ أمره، ولا يبدل قوله.

ونَخْتِمُ بآخِرِ أَدَبٍ؛ وهو: **أَدَبُ الجِدِّ والاجْتهادِ في طلب العلم**، فالجِدُّ والاجتهادُ أمرٌ مُهِمٌّ لطالبِ العلمِ، وليسَ معناهُ أنْ تكونَ ذَكِيًّا أو حافظًا، ولكن عليك بالدَّيمومة، فإذا ثابرْتَ واجتهدْتَ، فبإذن الله سوف تَصِلُ، أمَّا إذا كسلت فلن تَصِل.

ومِنْ صُوَرِ الكَسَلِ: أنَّك لا تُعْطِي العِلمَ أَصْلَ وقتِكَ، إنَّما تُعْطِيه الفَضْلَةَ، وتعجب حينما يأتي شخصٌ يقولُ: «أريدُ أنْ أَطْلُبَ العِلْمَ، ولكن حين أنتهي مِن أشغالي سأطلب العِلمَ»، هذا لم يُعْطِ العلمَ أصلَ وقتِه، ولكنْ أعطاهُ فَضْلَةَ وَقْتِه.

وكذلك في النَّظَرِ والمُذاكَرَةِ حينما يجعلهما في الأوقات التي له فيها شُغُلٌ، نقول: «أنتَ لم تُعْطِ الطلب حَقَّهُ»، فلا بد أن تجتهدَ وتُثابِرَ وتَدْرُسَ وتقرأَ في أوقات مناسبة.

وأَعْظَمُ مُعِينٍ لك علىٰ النَّشاطِ، -وهذه دَوِّنوها عندكم-: هو تَنْظِيمُ الوَقْتِ، فإذا لم تُنَظِّم وقتَكَ -فلو قرأتَ الليلَ والنَّهار- لا تستفيدُ كثيرًا،

لأنَّك لو قرأتَ شيئًا تقول: «أُريدُ أن أذهبَ للشُّغلِ»، ويَعْرِضُ لك هذا، ويأتي إليك هذا، وهَلُمَّ جرًّا.

والعلمُ عزيزٌ، يقول أهلُ العلم: «لِسانُ حالِ العِلْمِ يقولُ: أَعْطِني كُلَّكَ أُعْطِكَ بَعضي»(١)، فأنتَ إذا أعطيته بعضَكَ لا يُعْطِيك شيئًا؛ لأنَّ المِنَّةَ له.

وأنا أَضْمَنُ لكلِّ مَن نَظَّمَ وقتَه أنه سيَجِدُ وَقْتًا لزيارَةِ الأَقارِبِ، وللجُلُوسِ معَ الأَصحابِ، وللقِراءَة، لكن نَظِّمْ وقتكَ.

وهذه الوَصِيَّةُ ما زال الشيخُ محمدُ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ يُوصِي بها دائمًا طلابَه، فابْدَأْ بتدْوِينِ وَرَقَةٍ، ونَظِّم وقتَك، واجعل ما أنت ملتزمٌ به من أعمالٍ وأشغالٍ في أولوياتك، ثمَّ نظِّم وقتَ فراغك؛ فستجِدُ وقتًا للطلب، ولا تجعل الوقت يُنظِّمك.

هذا ما أحببتُ أن أُشيرَ له في هذه الآداب، وهي:

«الإخلاصُ»، و«التَّواضُعُ»، و«الحِرْصُ على حُسنِ الصُّحْبةِ»، و«حُسْنُ الخُلُقِ»، **ويتفرع عنه**: «كَفُّ الأذى وبَذْلُ النَّدَى»، و«طلاقَةُ الوَجْه»، و«المُرُوءَةُ»، و«الحِرْصُ على انتقاءِ الشَّيخِ لتسهيلِ العلم»، ثُمَّ «الجِدُّ والاجْتِهادُ ومواصَلَةُ الطَّلَبِ» وذلك بـ: «تنظيمِ الوَقْتِ».

(١) انظر: «الحث على طلب العلم» لأبي هلال العسكري (ص٤)، و«الجامع لأخلاق الراوي» (٢/٢٥٢).

الفصل الثالثُ:
منهجية طالب العلم

في هذا الفصلِ نُبيِّنُ أمرًا يهمُّ طالبَ العلمِ معرفَتُهُ، وهو: بيانُ أَوْلوياتِ طالبِ العِلْمِ.

ذكرنا من الآدابِ التي ينبغي لطالب العلم أنْ يُراعيَها حالَ طلبِه؛ أهميةُ انتقاءِ الشَّيخِ؛ أي: المُعَلِّم، وأنْ لا يَقْتَصِرَ الإنسانُ في طلبِه للعلمِ علىٰ القراءَةِ المجرَّدَةِ مِنَ الكُتُبِ، وقد قيل: «مَنْ كان شيخُهُ كتابُهُ فخطؤُهُ أكثَرُ من صوابِه».

ويغلبُ علىٰ مَنِ اقْتَصَرَ في طلبِهِ للعلمِ علىٰ الكُتُبِ أو علىٰ سَماعِ الأَشْرِطَةِ، أنَّه لا يكونُ في قلبِهِ نَوْعُ احترامٍ للآراءِ الأُخْرىٰ، وكذلك تَجِدُ منه تحقيرًا لِمَنْ خالفَهُ أو للعلماءِ، وهذا مَسْلَكٌ خطيرٌ، إذا سلكَهُ طالبُ العلمِ وتربَّىٰ عليه فإنَّه في الغالبِ لا يُوَفَّق، وقد قُلنا: «إنَّ لحومَ العلماء مَسمومةٌ»[(١)]، وذكر ابنُ عساكر رحمه الله أنَّ عامةَ مَن يتكلَّمُ في العلماءِ ويَقَعُ في أَعْراضِهِم يُختَمُ له بخاتمةِ سُوءٍ، والعياذُ بالله.

وقُلنا كذلك: إنَّ مِن فوائد انتقاءِ الشيخ: أنَّه يَخْتَصِرُ للطالبِ العلومَ، كما أنه يُوَجِّهُهُ لأولويَّاتِه؛ لأنَّ الطالبَ إذا توجَّهَ للعِلْمِ ورَغِبَ فيه تَكثُرُ عليه العلوم ليرتقي ويَصِلَ، فإذا لم يَجِدْ مَن يأخُذُ بيدِه ويَضَعُه علىٰ الطَّريقِ الصحيحِ

---

(١) انظر: (ص٣٦).

فإمَّا أنْ يخبطَ خَبْطَ عشواء، أو يشتغِلَ في شيءٍ دونَ أولوياته، أو تَلْحَقَهُ السَّآمةُ والمَلَلُ بسُرْعَةٍ فيتركُ الطَّريقَ مِنْ أوَّلِه، وهذا ممَّا لا ينبغي لطالبِ العلم أنْ يكون عليه، فالشيخُ إذا أقبلَ عليه الطالِبُ فإنَّه يُوجِّهُهُ، ويُبَيِّنُ له أولوياته، ويبين له: ماذا يقرأُ؟ وماذا يُؤَخِّرُ في القِراءَةِ؟

وربَّما أنَّ الطالِبَ -وهذا شَيءٌ مُشاهَدٌ ومعلومٌ- يُريدُ الترقِّي والوصولَ بسُرْعَةٍ، فإذا لم يَجِدْ مَن يُهَوِّنُ عليه وإلا يَمَلُّ، أو تَجِدُه يقرأُ في أُمَّات الكُتُبِ التي ليستْ مجالًا له، فلابُدَّ له أنْ يأخُذَ العلمَ شيئًا فشيئًا.

والعِلمُ وإنْ طالتْ مدَّتُهُ لكن ثمراتُهُ جميلةٌ علىٰ صاحبه إذا أخذَ العِلمَ شيئًا فشيئًا، فالشَّيخُ مِن مُهِمَّاتِه أنه يُرتِّبُ للطَّالبِ أولوياتِه، فتَجِدُ أنَّ الطالِبَ ربَّما يشتَغِلُ بعِلْمٍ مِنَ العُلُومِ، وهناك عِلْمٌ يحتاجُهُ هو أولىٰ منه، أو يشتغِلُ بكتابٍ ويتركُ كتابًا أهمَّ منه، وغيرها من الأشياءِ التي تكونُ عثراتٍ في طَلَبِ العلم، فنَحْنُ في هذا الفَصْلِ نُرَتِّبُ منهجيةً يسيرُ عليها طالبُ العلمِ ويستفيد منها.

فطالِبُ العلمِ كما قُلنا في الآدابِ عليه أن يحرصَ علىٰ الشَّيخِ الذي يَبنِيه بُنيانًا صحيحًا، فيبدأُ الطَّالبُ بتحصيلِ الأُصولِ؛ لأنَّ مَن أدركَ الأصولَ ضَمِنَ الوُصُولَ بإذن الله، أما مَنْ تخبَّطَ في الأصُولِ فإنَّه يُحرَمُ الوُصُولَ.

وأصلُ الأُصُولِ، وأهمُّ المُهمَّات، وأَوَّلُ ما يَبْدَأُ به الطالِبُ هو: العِنايةُ بكتابِ الله ﻷ، فيشتغِلُ بحفظِه والعنايةِ به.

وأمّا عن كيفية العناية والاشتغال بالحفظ:

فأولًا: العناية بالتِّلاوةِ الصَّحِيحةِ، فيذهَبُ إلىٰ شَيْخ يُقْرِئُهُ القرآنَ؛ لأنَّ القرآن ليس كقراءَةِ غيرِه في معرِفَةِ مَخارِجِ حُروفِهِ، ولا أَقْصِدُ بمعرفةِ مخارِجِ حروفِهِ التنطُّعَ الزائِدَ عندَ بعضِ القُرَّاءِ الذي يَذْهَبُ بلُبِّ القُرآن وفائِدَتِه(١).

بل يتعلَّمُ القراءةَ المُجوَّدَةَ السَّليمةَ، فيذْهَبُ إلىٰ شيخ يُحْسِنُ القِراءَةَ والتَّعليم، فيُقْرِئُهُ القُرآنَ، ويُقرئُهُ نصيبَهُ الذي يُريدُ أنْ يحفظَهُ، ثُمَّ يقرأُ عليه محفوظَهُ بعد ذلك، وهكذا، وبهذه الطَّريقةِ بإذن الله سوفَ يُتقِنُ القراءةَ علىٰ وَجْهِها الصَّحيح.

واشتغالُ الإنسانِ بالقُرآنِ إمّا أنَّه يبدأُ مِن آخرِ القرآن يعني: من «جُزْءِ عَمَّ»، ثُمَّ: «جُزْء تبارك»، ثُمَّ: «جُزْء المُجادلة»، ثُمَّ: «الذَّاريات» وهكذا، أو يبدأُ مِن آخرِ جُزأين ثُمَّ ينتقلُ للأوَّلِ، هذا باختيارِه.

ولْيَحْرِصْ علىٰ صفاء ذِهنِهِ للقُرآنِ؛ لأنه متىٰ اشتغلَ بالقُرآنِ وهو مشغولٌ فسوفَ يَجِدُ المَلَل، فيحرِصُ علىٰ أوقات فيها صفاء ذهنه، وأماكن تعينه علىٰ ذلك؛ كالجلوس بعد الفجر في المسجد؛ لأنه لم يَشْتَغِل بشيءٍ بَعْدُ، ولم تتعلَّقْ به مشاغِلُ اليومِ، فتَجِدُ ذهنَهُ للحفظِ أَقوىٰ، فيحاوِلُ أنْ يقرأَ ويَحْفَظَ مِن بعد صلاةِ الفَجرِ إلىٰ الشُّروقِ.

---

(١) قال ابن الجزري في «النَّشر» (٢/ ٣٣): «فليسَ التَّجويدُ بتَمْضِيغ اللِّسان، ولا بتَقْعِيرِ الفَم، ولا بتَعْويجِ الفَكِّ، ولا بتَرْعِيدِ الصَّوتِ، ولا بتَمْطِيطِ الشَّدِّ، ولا بتَقطيع المَدِّ، ولا بتَطْنِينِ الغنات، ولا بحَصْرَمَةِ الرَّاءات، قراءةٌ تنفِرُ عنها الطِّباعُ، وتمُجُّها القُلُوبُ والأَسماعُ، بل القِراءَةُ السَّهلةُ العَذْبةُ الحُلْوةُ اللَّطيفةُ، التي لا مَضْغَ فيها ولا لوك، ولا تَعَسُّف، ولا تَكَلُّف، ولا تَصَنُّع، ولا تنطُّع، لا تخرُجُ عن طباعِ العَرَبِ وكلامِ الفُصَحاءِ بوَجْهٍ مِنْ وُجُوهِ القِراءات والأَداءِ».

والقَدْرُ الذي يحفَظُهُ كيفَ يُراجِعُهُ غيرَ مراجعَتِهِ على الشيخ؟

يحاولُ أن يقرأَ بِهِ في السنن الرواتب، ويجعلُ مَعَهُ إمَّا القرآن كامِلًا في جَيْبِه، أو الجزءَ الذي يحفظُ منه، فكُلَّما قرأَ في راتبةٍ مِن الرواتِبِ أو السُّنَنِ وأحسَّ أنه أخطأَ يَرْجِعُ للمُصْحَفِ بعدَ الصَّلاةِ، وهذا بإذن الله يُثَبِّتُ الحفظَ، أو: أَنَّهُ ينتقي مكانًا يُصَفِّي له ذِهْنَه، فإنْ كان مُوَظَّفًا أو طالِبًا يَحْرِصُ على الإجازَةِ، ويذهبُ للأَماكِنِ التي تُعِينُهُ على الحِفْظِ، كأن يذهبَ للمدينةِ أو مكةَ.

مع أنَّا نقولُ: إنَّ الأفضل بقاؤُهُ عندَ أهلِه، ولو أن يذهَبَ إلى المَسْجِدِ ويَجْلِسَ فيه من الظهر إلى العشاء، ويمكُثَ على هذا أَمَدًا، فإنَّه بإذن الله سوفَ يَجِدُ أنَّه يتقوَّى على الحفظ، وهذا شيءٌ مُجَرَّبٌ.

حدَّثني أحدُ الإخوةِ ممَّن مَنَّ الله ﷻ عليهم بحفظِ القرآنِ، وكان يأتيني وأُقْرِئُهُ بعضَ السُّوَر، حَفِظَ في الكويتِ تقريبًا ثلاثةَ أجزاءٍ، ثُمَّ ذهبَ إلى المدينةِ وجلسَ فيها شهرين تقريبًا، يقول: «آتي الحرمَ صلاةَ الظُّهرِ وأجلسُ مِن صلاةِ الظُّهرِ إلى أن يُغْلَقَ الحَرَمُ الساعة التاسعةَ والنِّصف.

وبعدَ العشاءِ أذهبُ للسَّكَنِ، وكنتُ لوحدي فأتعشَّى وأنامُ، وأقومُ لصلاةِ الفجرِ، وآتي المسجدَ لأُصَلِّيَ الفجرَ، ثُمَّ أرجِعُ وأنامُ إلى ما قبلَ صلاةِ الظُّهرِ، فأستيقِظُ وآتي الحَرَمَ».

يقولُ: «في أوَّلِ الأَمْرِ كنتُ أحفظُ في اليوم ربعَ حِزْبٍ بصُعُوبةٍ، وفي الأسبوع الثَّاني كنتُ أحفظُ تقريبًا رُبْعَين، وفي الأسبوعِ الثالثِ كنتُ أحفظُ في اليومِ حِزبًا كاملًا، والقُرَّاءُ في المدينةِ وخاصة في المسجدِ النَّبويِّ كثر»، ويقول: «لازَمْتُ واحِدًا منهم وصِرْتُ أَحْفَظُ عندَهُ، وحَفِظَ في هذه المُدَّةِ أربعةً وعشرينَ جُزءاً».

«ثُمَّ رَجَعْتُ، وكنتُ حافِظًا قبل سفري ثلاثةَ أجزاءٍ فصار المَحْفُوظُ سبعةً وعِشرين جُزءاً، ثُمَّ جَلَسْتُ وحَفِظْتُ الأَجزاءَ الثَّلاثةَ الباقيةَ وانتَهيْتُ».

وأَحَدُ الإخوةِ حَفِظَ القرآنَ في ستَّةِ أَشْهُرٍ، وأُناسٌ حَفِظُوا في أقلَّ مِنْ ذلك.

صحيحٌ أنَّك أولَّ ما تبدأُ تَجِدُ ثِقْلًا، وتَجِدُ المُصْحفَ طَويلًا، لكن يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(١)، فالقرآنُ مُيَسَّرٌ، سواءٌ لحفظِه، أو للتَّذَكُّر، أو لِتذكيرِ الغير به، لكن يحتاجُ إلى استمراريَّةٍ، فتجِدُه بعدَ مدَّةٍ يَسْهُلُ عليك.

فهذا بابٌ ينبغي لطالبِ العلمِ أن يَحْرِصَ عليه غايةَ الحرصِ، وكان السَّلفُ يَحرصونَ على تلقِّي القرآنِ في بدايةِ طلبِهم للعِلْمِ.

جاء عبدُ الرحمن بنُ محمدِ بنِ إدريس، المعروفُ بابن أبي حاتم الرازي، وهو إمامٌ مِن أئمةِ الجَرْحِ والتعديلِ في الحديث، وقد رَغِبَ في طَلَبِ الحديثِ؛ فجاءَ ليقرأَ في الحديثِ -وعِلمُ الحديثِ علمٌ شريفٌ، لكنَّه طويلٌ، مَن اشتغلَ به لم يَجِدْ فرصةً للقراءة في شيءٍ آخرَ في الغالب؛ لأنه يَشْغَلُكَ في الجَرْحِ والتَّعديلِ، والنَّظرِ في الرُّواةِ والرواياتِ والأَحاديثِ وغير ذلك- فأَمْسَكَهُ أبوهُ ومنعَهُ من قراءَةِ الحديثِ، وقال: «حتى تقرأَ القرآنَ»، أي: حتى تحفظَهُ، فما تَرَكَهُ يقرأُ في الحديثِ حتى أَقرأَهُ القرآنَ وحَفِظَهُ، ثم طَلَبَ الحديثَ بعد ذلك(٢)، حتَّى أَصْبحَ إمامًا في الحَدِيثِ.

---

(١) سورة القمر، الآية: (١٧).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٢٦٥)، وانظر قصةً مشابهةً حصلت للشيخ عمر بن محمد ابن سليم مع والده، ذكرها الشيخُ صالح العُمَري في كتابه «علماء آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم» (١/ ٩٩).

وجاءَ مِثْلُهُ عن ابنِ جُرَيجٍ، وهو: عبدُ المَلِك بنُ عبدِ العزيزِ بن جُريج، من أئمةِ الحَدِيثِ، قال ابنُ جُريج : «أتيتُ عطاءً وأنا أريدُ هذا الشَّأنَ، وعندَهُ عبدُ الله ابنُ عُبيدِ بنِ عُمَير، فقال لي ابنُ عُميرٍ: «قرأتَ القرآنَ؟»، قلتُ: لا، قال: «فاذْهَبْ، فاقرأْهُ، ثُمَّ اطْلُبِ العلمَ».

فذَهَبْتُ، فغَبَرْتُ زَمانًا حتَّى قرأتُ القرآنَ، ثُمَّ جِئْتُ عطاء وعندَهُ عبدُ الله، فقال: «قرأتَ الفَرِيضةَ؟»، قلت: لا، قال: «فتعلَّمِ الفريضةَ، ثُمَّ اطْلُبِ العلمَ»، قال: فطلبتُ الفريضةَ، ثُمَّ جئتُ، فقال: «الآن فاطْلُبِ العلمَ»، فلَزِمْتُ عطاء سبعَ عشرةَ سنة»(١).

هذا مِمَّا يدلُّ على عنايةِ السَّلفِ بالقُرآنِ، فينبغي للطالب أن يحرصَ غايةَ الحِرْصِ على أَصْلِ الأُصُولِ الذي هو كلامُ الله ﷻ، ومَرَدُّ كُلِّ العُلومِ إليهِ، بل إنَّ كُلَّ العلومِ لتفسيرِ هذا الكلامِ، وحَمْلِهِ على أَحْسَنِ مَحْمَلٍ.

لكن يوجَدُ أمرٌ يَعرِضُ لطالبِ العلمِ، فتَجِدُ طالبَ العلمِ يقولُ: «أنا أشتغلُ بالقرآنِ لكن أقرأُ معه شيئًا آخر».

فنقول: لا بأسَ في ذلك، ولكن أهمُّ شيءٍ أن تجعلَ لنفسِكَ وِرْدًا مِنَ القُرآن، ثُمَّ لك النَّظر في بعضِ العُلُومِ الأُخرى، إذن لا بُدَّ أنْ تجعلَ للقُرآنِ نَصِيبًا، لا تُعطِّلْه ولا تقل: «أنا أقرأُ غيرَهُ ثُمَّ أَعودُ بعدَ ذلك»، أو: «أنا آخُذُ راحَةً من الحِفْظِ»، هذا كله لا يصلح لأنك إذا حفظت القُرآنَ فأنتَ على خَيرٍ عَظِيمٍ، وستأتي العُلُومُ تَبَعًا لهذا القرآن، وكَمْ مِنْ إِنْسانٍ ليسَ معه إلا القرآن وهو على خَيرٍ عَظِيمٍ.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٢٧).

وكان السَّلَفُ يَعِيبون مَن لا يحفظ القرآن ولو بلغ في العلمِ مبلغًا.

فعثمان بن أبي شيبة، أخو أبي بكر بن أبي شيبةَ صاحبِ المُصَنَّفِ المشهورِ، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» عنه: «ثقةٌ، حافِظٌ شهيرٌ، وله أوهامٌ، وقيل: كان لا يَحفَظُ القرآنَ»(١)، كتَبها مِن ذاكَ الوقتِ وصاروا يكرِّرونَها عليه، ودُوِّنَت في ترجمته، وصار يقرؤُها مَن جاء بَعْدَهُ؛ لأنَّهم كانوا يَعِيبُون علىٰ مَن لا يَحْفَظُ القرآنَ.

ثُمَّ يَقرأُ في التفاسيرِ المُيَسَّرةِ، **وأقصِدُ بها**: ما يُعطيك المعنىٰ الإجماليَّ من الآيةِ، مثل: «زُبْدةِ التَّفسيرِ» للشيخِ: محمد الأَشقرِ رَحِمَهُ اللَّهُ، و إن أرادَ توسُّعًا يسيرًا فـ «تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رَحِمَهُ اللَّهُ»، فهذان التفسيران سَهْلان يسيران فيهما من الفوائدِ الشيءِ الكثير.

وقد قال الشيخُ ابن عُثَيمين: «إِنَّ تفسيرَ شيخِنا عبدِ الرحمن بن ناصر السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ المُسَمَّىٰ: «تيسيرُ الكريمِ الرَّحمن في تفسيرِ كلامِ المنَّان» مِن أحسنِ التفاسيرِ؛ حيثُ كان له ميزات كثيرة -وذكر منها- : سهولة العبارة ... وتَجَنُّب الحَشْوِ... والسَّير علىٰ منهجِ السَّلَفِ في آياتِ الصِّفات، فلا تحريفَ ولا تأويلَ يخالفُ مُرادَ الله بكلامِهِ، فهو عمدةٌ في تقريرِ العقيدة»(٢)، يعني هذا التفسير.

وقد صَدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بل إنَّ هذا الكتابَ مِن أنفعِ التَّفاسيرِ، ولا غنىٰ لطالبِ العلمِ عنه.

---

(١) ترجمة رقم (٤٥١٣)

(٢) مختصر من تقدمته لطبعة تفسير السعدي التي اعتنىٰ بها الشيخ د/ عبدالرحمن اللويحق.

وقال في موضعٍ آخر: «تفسيرٌ سهل الأسلوب، ينتفع به طالب العلم والعامي والعالم». «لقاءات موكب الدعوة» للمشوح (ص٥٣).

وقد قال الشيخ ابنُ جرَّاح رَحِمَهُ اللَّهُ:«الشيخُ عبدُ الرحمن بن سَعدي متأثِّرٌ كثيرًا بأُسلوبِ ابنِ القيِّم، حتى إنَّك إذا قرأتَ له كأنَّك تقرأُ لابن القيم».

وهذا طَبَعِيٌّ أنَّ الإنسانَ إذا أَنْعَمَ النَّظَرَ(١) في كتابِ إنسانٍ مُعَيَّنٍ يتأثَّرُ بأسلوبِه، حتى إنَّ «رَوْضَةَ النَّاظِرِ» لابن قدامة قيل: «إنَّه تَهذِيبٌ لمُسْتَصْفى الغزالي»، وهو في الحقيقةِ مُؤَلَّفٌ جديدٌ، لكنَّ ابنَ قدامةَ كان كثيرَ النَّظرِ في كتابِ «المستصفى» في الأصول، وتأثَّرَ بأسلوبِهِ، وهذا أمرٌ طَبَعِيٌّ.

وإنْ أضافَ إليه معرفةَ مُفْرداتِ الآيات والكلماتِ فهذا جِيِّدٌ أيضًا، لكنَّه إذا قرأ مُجْمَلَ الآيات في «زُبدةِ التفسير» أو غيرِه، فإنَّه بإذن الله يُدْرِكُ خيرًا.

وبعد ذلك يَجعلُ له قراءةً في بعضِ التَّفاسيرِ، مثل: «تفسير ابن كثير»، فهو كتاب جيِّدٌ يعتني بالأَثرِ، وصاحبُهُ على عقيدةٍ سليمةٍ.

وإنْ أرادَ التوسُّعَ فـ«تفسير القُرْطبي» فهو من أفضل التفاسير.

وإنْ أرادَ التفسيرَ الأثريَّ فعليه بـ«تفسير الطبري»، هذا بالنسبة للتفاسير.

ثم الثاني ممَّا ينبغي لطالبِ العلمِ أنْ يجعلَهُ في منهجيته بعد القرآن: السُّنة، والمقصودُ بها: ما قاله النبيُّ ﷺ وصحَّ عنه، ولا نقصِدُ بقراءةِ السنَّةِ أنَّ الإنسان يفتحُ «صحيح البخاري» أو «صحيح مسلم» ويقرؤُهُ، هذا طويلٌ، ولا يناسِبُ المُبتدئَ في أوَّلِ أمرِه، لكن المقصودُ أن يقرأَ في البدايةِ مثلًا: «الأربعين النووية»، وأَصْلُ هذا الكتابِ لابنِ الصَّلاح رَحِمَهُ اللَّهُ، زادَ عليه النَّوويُّ أحاديثَ إلى أن صارت اثنين وأربعين حديثًا، ثُمَّ زادَ ابنُ رَجَب عليها في «جامعِ

---

(١) قال الزَّبيديُّ في «تاج العروس» (٣٣/ ٥١٢): «أنعمَ النَّظر في الشيءِ: إذا أطال الفكرةَ فيه».
وللفائدة انظر: «التقييد والإيضاح» للحافظ العراقي (١/ ٢٩٩).

العُلومِ والحِكَم» ثمانيةَ أحاديث وشَرَحها، وهذه الأحاديثُ التي في الأربعينَ النوويةِ عليها مدارُ الإسلام، ولها شروحٌ مُختصرةٌ ومطوَّلةٌ، فمن الشُّروح المختصرة: الشرح المنسوب لابنِ دَقيق العيد، وشرحُ الشيخِ العلامةِ محمدِ ابنِ صالح العثيمين؛ فشرحُهُ مُباركٌ وسَهْلٌ، وكذلك «جامع العلوم والحِكَم» لابن رَجَب رَحِمَهُ اللهُ، وهو من أكبرِ الشروح على متن الأربعين.

ويقرأُ الطالبُ أيضًا في مختصراتِ أحاديثِ الأَحكامِ، مثل: «عُمدة الأحكام» أو «بُلوغ المرام»، هذان كتابان في أدلة الأحكام، يعني: يأتي بكتاب الطهارةِ فيذكُرُ فيه أحاديثَ الطهارةِ، ثم يأتي بكتابِ الصلاةِ فيذكر لك أحاديث الصلاة وهكذا..، وعليها أبوابٌ، فهذا يُعطي الطالبَ معرفةً بأحاديث الأحكام التي جاءت عن النَّبيِّ ﷺ.

ويقرأُ ما هو مُختَصَرٌ من شُرُوحِ هذه الكُتُبِ، وإنْ أرادَ أنْ يقرأَ مُجْملَ أحاديثِ النبيِّ ﷺ فعليه بـ«رياض الصالحين»، فإنه مِن أَنفعِ المُؤَلفات؛ لأنَّه ليسَ فيه إلا: «قال الله» و«قال رسول الله ﷺ»، وأحيانًا يشرح بعض المفردات، وهو مَحَلُّ اعتناء أهلِ العلم قديمًا وحديثًا.

فالذَّهبيُّ في وَقْتِه لَمَّا تكلَّمَ في ترجمةِ الغزاليِّ وبيَّنَ أنه تأثَّرَ بعلمِ المَنْطِق وعِلْمِ الكلامِ وغيره، وأنَّ هذا ممَّا أنقصَ قدرَهُ، وأنَّ اشتِغالَهُ في هذا أبعدَهُ عن معرفةِ السنَّةِ واتِّباعِها، قال في آخر ترجمته: «فعليكَ يا أخي بتدبُّرِ كتابِ الله، وبإدْمانِ النَّظَرِ في «الصَّحِيحَين» و«سُنَن النَّسائيِّ»، و«رِياضِ النَّواوي»، و«أَذْكارِه»، تفلـح وتنجح»[1].

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٤٠).

وهذا يدلُّ علىٰ عنايةِ أهلِ العلمِ بـ«رياض الصالحين»، وغالبُ ما فيه أحاديثُ صَحِيحةٌ، واستدرك العلامة الشيخُ ناصرُ الدين الألبانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تقريبًا أربعينَ حديثًا، وهذه الأحاديثُ ليستْ واهيةً، يعني: أحاديثُ يوجَدُ مِنْ أهل العلم مَنْ صَحَّحَها، والنَّوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ مِن أهلِ العلمِ، ويُصحِّحُ هذه الأحاديثَ.

فالحاصِلُ أنَّ «رياضَ الصَّالحين» غير ما فيه من الترغيب والترهيب، يفتحُ لك آفاقًا كثيرةً في معرفةِ السنَّةِ والأذكارِ وغير ذلك، فهو كتابٌ نافعٌ ومختصرٌ.

فالسنَّةُ ممَّا ينبغي لطالبِ العلمِ أن يعتنيَ بها بعد كتابِ الله، والنَّظر في أخصرِ التفاسيرِ كـ: «زُبدة التفسير» أو «تفسير ابن سعدي».

ثُمَّ يقرأُ في كتبِ العقيدةِ، وهي مُهِمَّةٌ، لا سيَّما في الأَزمنةِ التي تَكْثُرُ فيها البِدَعُ والمُخالفاتُ، ففي البِدايةِ يَقْرأُ: «ثلاثة الأصول وأدلتها» للشَّيخِ محمَّدِ ابن عبدِ الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ، ومدار هذه الرسالة علىٰ سؤال المَلَكَين لابن آدمَ أوَّل ما ينزِلُ في قبره: «من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟»، تعرِفُها، وتَضْبِطُها وتعرفُ أمرَ العبادةِ.

بعدَ ذلك تقرأُ: «كتاب التَّوحيد»؛ لأنه يُعالِجُ ويُبيِّنُ توحيدَ الأُلوهِيَّة، وهذا النَّوعُ من التوحيدِ هو الذي فرَّقَ بينَ مِلَّةِ الكُفرِ ومِلَّةِ الإسلامِ، فأهلُ الشِّركِ الذين بُعِثَ فيهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما كانوا يَجْحَدُون وُجُودَ الله، بل يُقِرُّون بوُجُودِ الله، ويقولون: «إنَّ اللهَ هو الرازقُ وهو المالِكُ وهو المُدَبِّرُ»، ولكنَّ الخَلَلَ عندَهُم في توحيدِ الأُلوهيَّةِ، ولذلك تَجِدُهم يتقرَّبُون للقُبُورِ، ويتقرَّبُون للأَولياءِ، ويتقرَّبُونَ للأَشجارِ، ويتقرَّبُونَ للأَحْجارِ، ويتَطَيَّرُون، ويتعلَّقُونَ بأشياء تمنع توكلهم علىٰ الله، فإذا أرادوا السَّفرَ يَزْجُرونَ الطَّيرَ، فإذا ذَهَبَتْ

يَمِينًا تفاءَلُوا بالسَّفَرِ ومَضَوا فيه، وإذا ذَهَبَتْ يسارًا تَركُوا السَّفَرَ، وهذا تعلُّقٌ بغيرِ الله، وينافي التوكل على الله، فهذا الكتابُ يُعالِجُ هذه القضيةَ ومثيلاتها.

وإن كان يُعالِجُ قضايا التَّوحيدِ كُلَّها، ولذلكَ تَجِدُ فيه بابًا في الأسماءِ والصِّفاتِ، وبابًا في القَدَرِ وغيرِه، لكنَّه يُعالِجُ هذه القضيةَ المُهِمَّةَ التي انتشرت في زَمَنِه رَحِمَهُ اللهُ وهو أوَّلُ ما يَسْرِي على الأمَّةِ مِن تعلُّقِ الناس بأصحابِ القُبورِ، والذِّبحِ لغيرِ الله، وغيرِ ذلك من المسائلِ.

ثُمَّ بعدَ ذلك يقرأُ: «كشف الشُّبهات»، وهو كتابٌ مهمٌّ جدًّا، معَ أنَّه رسالةٌ لطيفةٌ صغيرةٌ جدًّا، لكنَّها تَكْشِفُ الشبهاتِ التي يلبِّسُ بها بعضُ الناسِ على أَمْرِ التَّوحيدِ، ومن ذلك قولهم: «التَّوحيدُ ليسَ مُهِمًّا، والناسُ ولله الحمدُ على الفِطْرةِ!».

فيُقالُ: «كيفَ النَّاسُ على الفطرةِ وهم يذبَحُونَ لأصحاب القبور؟! كيفَ على الفِطْرةِ وهم يَستغيثونَ بغير الله؟! كيفَ على الفطرةِ وهم يتوكَّلُون على غير الله، ويَزْجُرونَ الطَّيْرَ؟! كيفَ على الفطرةِ وهم يتشاءَمُونَ بالأَشياءِ المَرْئيَّةِ والمَسْمُوعَةِ وغيره؟! هذا ليسَ بتوحيدٍ»، فهُمْ عِندَهُم شُبَهٌ.

ولذلك لَمَّا تكلَّم الشيخُ محمدُ بنُ عبدِ الوهَّاب وقال: «مَنْ ماتَ وهو على شَيءٍ مِنَ الشِّركِ دخلَ النار»، قالوا: «كيفَ تُدْخِلُ النَّارَ مَنْ يقولُ: لا إله إلا الله؟!»، قال: (لا إله إلا الله) لَهَا نواقضُ؛ مثل: الوضوءِ -وهو أَقَلُّ مَنزِلةً مِنَ التَّوحيدِ- له نواقضُ، والصَّلاةُ لها نواقِضُ، والصِّيامُ له نواقِضُ، فالتَّوحِيدُ له نواقِضُ يَجِبُ مُراعَاتُها.

ولذلك لمَّا أوردَ الشيخُ محمَّدُ بنُ عبدِ الوهاب شبهَهُم أجاب عنها بأحسنِ الأَجوبةِ، حتَّى إنَّه لَمَّا وَصَل معهم لآخرِ نُقطةٍ قال: «الآن نسألُهم: فَسِّرْ لنا

التَّوحيدَ، وعَرِّفْ لنا الشِّركَ؟! ما هو التَّوحِيدُ الذي عندَكَ؟»، تَجِدُهُ يفسِّرُه بتفسيراتٍ خاطِئَةٍ، فلأَجْلِ هذا كتابُ: «كشف الشُّبهات» -الذي رُبَّما لا يعتني به الكثيرُ مِنَ الطُّلَّاب لصِغَرِ حَجْمِه- عظيمُ النَّفْعِ.

وما ذَكَرَهُ الشَّيخُ محمدُ بنُ عبد الوهاب رحمه الله في «كشفِ الشُّبهات» هو ما يُكرِّرُهُ حتَّى الآن أهلُ البِدَعِ مِنَ الصُّوفيَّةِ والأشاعِرَةِ وغيرِهم، إذا تكلَّمتَ عن التَّوحِيدِ يقولون: «النَّاسُ على الفِطْرةِ»، وبعضُهم يقولُ: «إنَّ التوحِيدَ هو الذي يُفَرِّقُ الناس!»، فنقول: نعم، دِينُ الرُّسُلِ، هو الذي يُمَحِّصُ الناسَ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾(١).

و النبيُّ ﷺ لَمَّا خرجَ مع أصحابِه إلى حُنَين مَرُّوا بشجرة للمشركين يقال لها: ذاتُ أَنْواطٍ، فقالوا: «يا رسولَ الله اجْعَلْ لنا ذاتَ أَنْواطٍ كما لهم ذاتُ أنْواطٍ»، فقط قالوا هذه الكلمةَ، وكانوا حُدَثاءَ عَهْدٍ بكُفْرٍ، ومسلمين جُدُد، لم يَسْكُتِ النبيُّ ﷺ بل قال: «**الله أكبرُ، إنها السُّنَن، قُلتُم والذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ كما قالت بنو إسْرائيل لموسى:** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾»(٢).

فانْظُر لو أنَّ أحدًا قيل له هذا القولُ لقال: «أجعلت هذه آلهة؟! نحن فقط قلنا: اجْعَلْ لنا ذاتَ أنواطٍ حتَّى نتبرك بها»، فالنبيُّ ﷺ قال: «أنتم مثل الذين قالوا: اجْعَلْ لنا إلهًا كما لهم آلِهة»، ولم يَتْرُكْهُم، بل نَبَّهَهم؛ لأنَّ هذا أمرٌ عظيمٌ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٤١).

(٢) رواه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨٩٧)، وصححه الشيخُ الألباني في «تخريج السنة» لابن أبي عاصم (٧٦).

أعظمُ مِن هذا أنَّ النبيَّ ﷺ كان حَرِيصًا غايةَ الحِرْصِ علىٰ إِقامَةِ التَّوحيدِ في قلوبِ العِبادِ، وأنَّه لا يَغْتَفِرُ ما يضاده ولو كان شيئًا يسيرًا؛ ولذلك لَمَّا قال أحدُهم: «ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ»، قال: «**أَجَعَلْتَني لله ندًّا؟! قُل: ما شاءَ اللهُ وَحْدَه**»[(١)].

وفي الحديثِ الآخَرِ أرشدهم أن يقولوا :«**مَا شاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ**»[(٢)]، لكي لا تأتي بالواو التي تُوهِمُ التَّسوية.

فالنَّبيُّ ﷺ كان حَرِيصًا غايةَ الحِرْصِ علىٰ تأسيس وحماية التوحيد، حتَّىٰ لَمَّا جاءَهُ وفدُ بني عامر فقالوا: «أنتَ أفْضَلُنا فَضْلًا، وأَعْظَمُنا طَوْلًا»، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**قولوا بقَوْلِكُم أو ببَعْضِ قَوْلِكُم، ولا يَستَجْرِيَنَّكم الشيطانُ**»[(٣)]، أي: لا تُعَظِّموني بشيءٍ أنا بريءٌ منه؛ لأنَّهُ خَشِيَ أنَّ هذا الكلامَ يرتَقِي إلىٰ دَرَجَةِ الغلو، فينبغي للإنسانِ أنْ يعتنيَ غايةَ العِناية بكتبِ العقيدةِ والتوحيد.

ثُمَّ بعدَ كتابِ «كشف الشبهات» يقرأُ «القواعِدَ المُثلىٰ في صفاتِ الله وأسمائِه الحُسنىٰ» للشَّيخ ابنِ عُثيمين رَحِمَهُ اللهُ، وهذا الكتابُ في العَقِيدةِ، في توضيحِ القواعِدِ لمعرفةِ أسماءِ اللهِ وصفاتِه، وهذه القواعدُ ليستْ مِن اختراعِ الشَّيخِ محمد بن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ الذي أَلَّفَ الكتاب، بل هي مذكورةٌ مِن قبل، ذكرها ابنُ القيِّم في «بدائع الفوائد»، وغيرُه من أهلِ العلم، لكن الشيخُ محمدٌ رَحِمَهُ اللهُ رَتَّبَها وأضافَ عليها وضَبطَها، فكان ترتيبُها مِن أحسنِ التَّرتيب، فيقرؤُها الإنسانُ، لأنَّها في بابِ الأَسماءِ والصِّفاتِ.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وحسن إسناده الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٩).

(٢) رواه النسائي (٣٧٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٣٦).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الشيخ الوادعي في «الصحيح المسند» (٥٨٥).

ثُمَّ بعدَ هذا الكتاب يقرأُ «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي مُجْمَلٌ لاعتقاد أهلِ السنَّةِ والجَماعةِ، مُجْمَلٌ كامِلٌ، بيَّنَ في هذه الرِّسالةِ أنَّ ملَّةَ الإسلامِ وَسَطٌ بينَ المِلَلِ، ومَذْهَبَ أهلِ السنَّةِ والجماعةِ وَسَطٌ بين الطوائفِ الزَّائغةِ، ثُمَّ استطرَدَ في موقف أهلِ السنَّةِ والجماعةِ في باب القدر، وباب الإيمان، وباب ولاة الأَمْرِ والصَّحابةِ، وذكرَ غالبَ مسائلِ العقيدةِ، فعلى طالبِ العلمِ الاعتناءُ بقراءةِ هذا الكتابِ و دراستِه.

وأُكَرِّرُ دائمًا: لا يغترَّ الطَّالِبُ بقراءةِ الكتابِ مرَّةً أو مرَّتين أو ثلاثة، فإنَّ في تَكرارِهِ زيادةَ انتفاعٍ، وإنْ قرأَ بعدَ «الواسطيَّةِ»: «الحموية» ثمَّ «التَّدْمُرِيةَ» فهو أمرٌ حَسَنٌ.

ثُمَّ ينظُرُ في أُصُولِ الفِقْهِ، وعلمُ أُصُولُ الفِقْهِ علمٌ مُهِمٌّ لطالبِ العِلْمِ، **وفائدتُه**: تنميةُ مَدارِكِ طالبِ العلم لمعرفة الأحكام، وأنا لا أُبعِدُ النَّجْعَةَ إذا قلتُ: إنَّ بعضًا مِن خِلافاتِ أهلِ العلمِ في المسائلِ الفِقْهيَّةِ ناتِجٌ عن التفاوُتِ في تنزيل وتَطْبيقِ قواعِدِ أُصُولِ الفِقْهِ، فتَجِدُ أنَّ هذا العالِمَ يُدْرِجُ هذا الحُكْمَ تحتَ قاعدةٍ أو عُمُومٍ أو غيرِه، وتَجد البعضَ يُغفِلُ هذا الجانِبَ.

وأنا قد وقفتُ على شَيءٍ من خِلافِ أهلِ العِلمِ في بعضِ المسائل بسبب تفاوت العناية بهذا الفنِّ؛ فمِنَ المسائلِ ما تَجِدُ الخِلافَ فيها قائِمًا، ولو طبَّقْتَ القواعد الأصولية لانتهى الأمر وتبيَّن الراجح في المسألة، فأُصُولُ الفِقْهِ عِلْمٌ مُهِمٌّ جِدًّا لطالبِ العِلْمِ.

وهو عِلْمٌ يَبْحَثُ في أدلةِ الفِقْهِ الإجماليةِ، وكَيْفيَّةَ الاستفادةِ منها، وحالِ المُستفيدِ[1]، **فهذه ثلاثةُ أشياء:**

---

(١) انظر: «الحاصل من المحصول» لتاج الدين الأرموي (١/ ٢٣٠)، و«نهاية السول» للإسنوي (١/ ٧).

* **يبحث في أدلةِ الفقهِ الإجماليةِ**، لا التفصيليَّةِ، فالتفصيليَّةُ في الفِقْهِ، فمثلًا: «ما الدَّليلُ علىٰ اشتراطِ النيَّةِ؟»، تقولُ: حديث «**إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ**» فهذا مبحثُهُ في الفِقْهِ، لكنَّ مبحثَ أُصولِ الفِقْهِ: في أدلَّةِ الفِقْهِ الإجماليَّةِ؛ كـ: «الأمرُ يقتضي الوجوبَ»، و«النَّهيُ يقتضي التحريمَ»، و«التخصيص بعدَ العُمومِ يقتضي إِخْراجًا لبعضِ أفرادِ هذا العمومِ»، وهكذا.

* **ويبحثُ كذلكَ في كيفيةِ الاستفادةِ مِن هذه الأدلةِ الإجماليةِ**، فمثلًا: «النصُّ يُحمَل علىٰ الظاهر»، و«الناسخ يُحمَل علىٰ المنسوخ»، و«المقيَّدُ يُحمَل علىٰ المُطلقِ»، و«الخاصُّ يُخَصِّصُ العُمومَ»، هذه كلُّها أشياءُ تستفيدُها مِن أصولِ الفقهِ، وكذلك إذا تعارضتِ الأدلةُ كيفَ ترجِّحُ بينها؟ ماذا تُقدِّمُ وماذا تُؤَخِّر؟ هذا في أصول الفقه.

* **وحالُ المُستفيدِ**، أي: المُجتهدُ متىٰ يكون مجتهدًا؟ وآدابُ المفتي، وآداب المستفتي، وغير ذلك من المسائلِ.

أما عن الكُتُبِ التي تُقْرَأُ في أصول الفقهِ، فالكتبُ تختلفُ مِنْ زَمَنٍ إلىٰ زَمَنٍ، كانوا في السابقِ دائمًا يحثون علىٰ «الوَرَقات» للجويني، لكن أتَتْ مؤلفاتٌ بعدَه في تأصيل أصولِ الفقهِ أحسنُ ممَّا في «الورقات»؛ فاسْمُها: «ورقاتٌ» كتبَها الجُوَينيُّ ﵀، ولا يعني هذا أن يُهمَلَ متنُ «الورقاتِ»، لكنْ المقصودُ أن يُقَدِّم عليه في الدِّراسةِ بعضَ الكتبِ المُعاصرةِ المُختصرةِ الجامعةِ.

ففي زمننا هذا أَحْسَنُ ما أُلِّفَ كبدايةٍ ودخولٍ في هذا الفن ما كتبَهُ الشيخُ محمدُ بنُ صالح بن عُثَيمين ﵀ في رسالته: «الأصولُ من علمِ الأُصولِ»، فهذا الكتابُ سَهْلٌ ويَسِيرٌ، ويحوي لك غالبَ فَنِّ الأُصولِ ممَّا يحتاجه الطالب في بدايته.

فتقرأُ هذا الكتابَ و تُتْقِنُه، ولا تكتفي بالقِراءَةِ الواحِدَةِ، بل اقرأ الكِتابَ أكثرَ مِنْ مرَّةٍ، واقرأْهُ علىٰ أكثر من شَيْخٍ، وآفَةُ طالبِ العلمِ قولُه: «قرأتُ هذا الكتابَ وأُريدُ غيرَه»، فنقول: تكرارُ الكتابِ الواحِدِ يَفتحُ لك آفاقًا كثيرةً، ويُنشِئُ عندَك مَدارِكَ دقيقة.

ثُمَّ إنْ أردْتَ ما هو أوسع فاقرأ: «مُخْتصرَ التَّحرير» للفُتوحي؛ لأنه كتاب موسَّعٌ وجيِّدٌ.

ثُمَّ بعدَ ذلك تنطَلِقُ، يعني نحنُ بَنَيْنا لك الأَصْلَ؛ أي: ما تَبْنِي عليه مُقَدِّمتَك، وبعد ذلك تُوجَدُ كُتُبٌ كثيرةٌ في أصولِ الفِقْهِ يُمْكِنُ أن تستفيدَ منها؛ كـ: «قواعِدُ الأُصولِ ومعاقِدُ الفُصُول» لصَفِي الدِّين الحنبليِّ، وهو كتاب جيِّدٌ، و«التَّحبيرُ شرح التَّحرير» للمَرْداويِّ أكبرُ منه، لكنَّ هذه انطلاقةٌ، لا بُدَّ لك أنْ تُؤَصِّلَ نفسَكَ علىٰ شيءٍ قبلها، فتأصيلُكَ علىٰ كتاب الشيخ محمد العثيمين، ثم بعدَهُ «مختصر التحرير» مِنْ أنفعِ ما يكون.

ثُمَّ بعدَ قراءَةِ الطالبِ في أُصولِ الفقهِ وقراءَةِ هذه الكتبِ التَّأصيليةِ **يقرأُ في القواعِدِ الفِقْهيةِ**، وهل القواعد الفقهية غير أصول الفقهِ؟

نقول: نَعَمْ، القواعِدُ الفقهيةُ غيرُ أصولِ الفقهِ، **فالقواعِدُ الفقهيةُ**: أحكامٌ أغلبيةٌ تُطَبَّقُ علىٰ أجزاءِ المسائلِ.

فمثلًا: القاعِدةُ الفقهيةُ: «المشقَّةُ تَجلِبُ التَّيسيرَ»، هذه قاعدةٌ فقهيةٌ أغلبيةٌ، فالمشقَّةُ تَجلِبُ التَّيسيرَ، لكنَّها قاعِدَةٌ أغلبيةٌ، لا تُطَبَّقُ علىٰ كُلِّ تكليفٍ؛ لأنَّ التكاليفَ الشَّرعيَّةَ فيها شيءٌ من المشقَّةِ إلا أنَّها ممَّا تُطاقُ، ويقدِرُ علىٰ أدائِها كُلُّ مُكلَّفٍ، ما لم يَقُمْ فيه مانعٌ يمنعُ، أو توجدُ مشقَّةٌ غير معتادةٍ لأداء هذا التكليف؛

كالمرضِ والسَّفرِ والخوفِ، فهذه عوارض تمنعُ الطَّبيعةَ البشريةَ ممَّا في وُسْعِها عادةً، فهنا تُطبَّقُ قاعدةُ: «المشقَّةُ تجلب التَّيسير».

وكذلك من القواعد الفقهية الأغلبية أنَّ **الغَـرَرَ يُبْطِلُ صحَّةَ العَقْدِ**؛ لأنَّ العلمَ بما في العقدِ شرطٌ لصحَّةِ العقدِ، فالغررُ يُبطِلُ صحَّةَ العقدِ، ولكن ليس كُلُّ غررٍ يُبطِلُ صحَّةَ العقدِ، **فما الغَرَرُ؟**

الغَرَرُ: هو الجهالةُ، فعَقْدُ الزَّوجيةِ، لو نظرتَ له مِن مِنظارِ الغرر والجهالة لوجدتَ أنَّ فيه غررًا وجهالةً؛ لأنك تبذُلُ المهرَ، وتقومُ بوليمةِ العُرسِ، وما يتبعُها من النَّفقات، وأنت لا تدري هل تستمرُّ بينكما الحياةُ الزَّوجيةُ أو لا، لعارض الطَّلاقِ أو الموت؟

إذًا ليس كُلُّ غَرَرٍ أو جهالةٍ تُبطِلُ العقدَ، إنَّما هي أحكامٌ أغلبيةٌ.

وكذلك عند شِراءِ البَيتِ لابدَّ أن يكونَ مَعْلُومًا، لكنَّ قواعِدَ البيتِ الأَساسيةَ التي في الأَسفَلِ مجهولةٌ لك، **فهل هذا يُبْطِلُ العقدَ؟**

الجوابُ: لا يُبْطِلُ العقدَ؛ لأنَّ هذا شَيءٌ جرىٰ العُرْفُ في خَفائِه عن الأَنْظارِ، لكن لو عَلِمَ أنَّ الزَّوجةَ بيَّتَتْ أن تُوجِدَ أسبابَ الطَّلاقِ، أو أنَّ هذا البائعَ عَلِمَ أنَّ أساسات البيت مُنهارَةٌ، فهذا أَمرٌ آخَرُ؛ لأنَّه وُجِدَ عِلْمٌ قبلَ العقدِ.

وكذلك من القَواعِدِ الفقهيَّةِ : «أنَّ العمومَ يَشْمَلُ جميعَ أفرادِه».

وصِيغُ ألفاظِ العُمومِ مثل: المُفْرَدُ المُضافُ يَدُلُّ علىٰ العموم، و(أل) التي للاسْتِغراقِ تُفيد العُمومَ، و(أل) التي للجِنْسِ تُفِيدُ العُمومَ، هذه أشياء يعرِفُها الطالبُ إذا طَرَقَ هذا الفَنَّ؛ أي: «فَنُّ القواعِدِ الفِقْهيَّةِ».

إذًا أصولُ الفقهِ والقواعِدُ الفقهية، عِلْمَان إذا طَرَقَهُما الطالبُ وعرفَهُما فإنَّهُ سيفهَمُ أدلةَ الأحكامِ وعللها، وسَيَجِدُ سهولةً في قراءةِ كُتُبِ الفقهِ، ويستطيعُ أن يستنبطَ أحكامها، حتى أحاديث الأحكام إذا قرأَ الحديثَ يَسْتَطِيعُ أن يستنبطَ منه أحكامًا كثيرةً، ولو لم يأت على كُلِّ ما يَحْمِلُهُ الحديثُ من أحكامٍ لكنَّه يأتي على كَمٍّ كبيرٍ منها.

ففي عِلْمِ القواعِدِ الفِقْهيةِ يوجَدُ مُؤَلَّفٌ للشَّيخ عبدِ الرَّحمن بن سَعدي نَظْمٌ ونَثْرٌ، فالنَّظْمُ مِنْ بابِ التَّسهيلِ على الطالِبِ، لأنَّ بعضَ الطلَّاب يرغبُ في الشيءِ منظومًا، وبعضُهم يرغبُ في النَّثر أكثر من النَّظْمِ، لكنَّ هذا النظمَ جيِّدٌ، يُرَغِّبُ الطالبَ في القراءةِ والحفظِ، **فمن ذلك قوله:**

والأصلُ في مياهِنا الطَّهارَة   والأرضِ والثيابِ والحِجارَة

وهذه المنظومة على بحر الرَّجز، والرَّجَزُ: بَحْرٌ مِن بُحُورِ الشِّعْرِ سَهْلٌ جِدًّا، يركَبُهُ كلُّ مَن أرادَهُ، ولذلك قالوا: الرَّجَزُ حِمارُ الشُّعراءِ[1]؛ يعني: كُلُّ مَن أرادَهُ ركبه، ولا يَصْعُبُ على أَحَدٍ.

وبعد ذلك يقرأُ في كُتُبِ الفِقْهِ، وكتبُ الفِقْهِ كثيرةٌ، فالمذاهبُ أربعةٌ، وكُتُبُها كثيرةٌ، ومِن مهمَّات الشَّيخِ للطَّالبِ أن يُرشِدَهُ إلى الكتابَ الذي يكونُ

---

(١) انظر: «الكافي في العروض والقوافي» للتبريزي (ص٧٧)، و«ميزان الذَّهب في صناعة شعر العرب» للهاشمي (ص٨٢).

* جاء في «علماء نجد» للبسام (٤/٦٨) في ترجمة الشيخ عبد الله آل بريكان (ت ١٤١٠هـ): «ولما فتح المعهد العلمي بعنيزة عُيِّنَ فيه مُدرِّسًا، فأفادَ الطلاب وارتاحوا في دروسه وحسن تعليمه، وكان من المقرَّرات: علم العَروض والقوافي، ولم يكن من المُدَرِّسين الوطنيين ولا القادمين من له إلمامٌ به، فعَرَضوا عليه تدريسَهُ فقَبِلَ وهو لم يسبقْ له به دراسة، فصارَ يُراجِعُهُ ثم يلقيه على الطلَّاب بأحسنِ شرحٍ وأفضلِ بيان».

تأصيليًّا، ونقصِدُ بالتَّأصيليِّ: الذي يستطيعُ أن يَبنِيَ عليه المسائلَ، ويستفيدَ منه، ويكونَ كالأساسِ له.

فمثلًا في مَذْهَبِ الحنابِلَةِ: يقرأُ إمَّا «زاد المُستَقْنِع» للحجَّاوي، أو «دليل الطَّالب» لمرعي الكرمي، وإنْ قرأَ «زاد المستقنع» وحَفِظَهُ فهذا أَحْسَن[1]، يقولون: «زادُ المُستَقْنِع» أكثر مسائل، لكنَّه إن حَفِظَ «زاد المُستَقْنِع» فعليه أن يُكثِرَ مِنَ النَّظَرِ والقراءَةِ في «دليل الطالب»، **لماذا؟**

يقولون: «زاد المستقنع» فيه مسائلُ أكثرُ ممَّا في «الدَّليلِ»، لكنَّ «الدَّليل» ترتيبُهُ وسَبْكُهُ للعبارةِ أسهلُ مِن «زاد المستقنع»؛ تَجِدُ أنَّ «الدَّليل» مَثَلًا لمَّا يأتي بشروط الوضوء يقول لك: «ثمانية» ويَذْكُرها واحِدًا تلوَ الآخر، الأول كذا، والثاني كذا، وهكذا، فهو سَهْلٌ، «أركانُ الصَّلاةِ أربعة عشر» فيذكُرُها، «واجباتُ الصَّلاةِ ثمانيةٌ» يذكُرُها، تَجِدُ فيه السُّهولةَ، يُعَدِّدُها لك، بخلاف «الزَّاد» يقول لك: «واجباتُ الصَّلاة» ويذكرها لك سَرْدًا، فأحيانًا لا تُمَيِّزُ هذا من هذا، تظنُّهُ واحِدًا وهو اثنان، لكن لا شكَّ أنَّ الذي يُعَدِّدُها لك أَحْسَنُ من الذي ينثُرُها لك نَثْرًا، ولذلك أقول: اقرأْ في «زاد المُستَقْنِع» أو احْفَظْهُ، ولا تُهْمِل «دليل الطالب».

كان الشيخُ عبدُ الرحمن بن سعدي يحفَظُ «دليل الطالب» ويُرَغِّبُ في «زاد المُستَقْنِع»، وكان الشيخُ محمدُ بن عُثيمين يحفظ «زاد المستقنع» ويقول: «إنَّه أكثرُ مسائلَ مِنَ الدَّليل».

---

(١) جاء في ترجمة الشيخ علي بن سليمان الضالع (ت١٣٩٧) أنه قرأ الزادَ حفظًا على شيخه عمر ابن سليم إحدى وعشرين مرَّة لم يخرم منه حرفًا. انظر: «حديث المحراب، ورقات في سيرة الشيخ العلامة علي الضالع» (ص٣٠).

ومن أَسبابِ تقديم «زاد المُستَقْنِع» أنه مخدومٌ أكثر، فشروحه وحواشيه أَكثر، فهذا يزيد الإنسانَ فَهْمًا ومعرفةً في المسائِلِ.

وربما يقولُ قائلٌ: **قصدُكَ أنَّنا نَتَمَذْهَب؟**

نقولُ: لا، وفَرْقٌ بينَ التَّمَذْهُبِ، والقِراءَةِ في المَذْهبِ، **التَّمَذْهُبُ**: أنَّك تتَعَصَّبُ لِمَذهبٍ مُعَيَّنٍ ولا تقبَلُ خِلافَهُ(١)، **والقِراءَةُ في المَذْهَبِ**: توصُّلُك في الفقه على أسسٍ سليمةٍ في بدايةِ الطَّريقِ، وهذه الطريقةُ هي طريقةُ العلماءِ مِنْ قبلُ، وبها التأصيل والتحصيل.

وبعضُ النَّاسِ يقولُ: «اقرأ «صحيحَ البُخاريِّ» فهو أحاديث».

نقول: «صحيح البخاري» ألا يَحتاجُ إلىٰ شَرْحٍ تقرؤُهُ معه؟ وهذه الشُّروحُ إمَّا لمالكيٍّ أو لشافعيٍّ أو لحنفيٍّ أو لحنبليٍّ، وتحتاجُ أنْ تأخذَ واحِدًا من الأقوالِ، فإذًا خرجتَ ورجعتَ مرةً أخرىٰ إلىٰ واحدٍ من هذه المذاهبِ، لكنَّ تأصيلَكَ في الفقه علىٰ مذهبٍ معيَّنٍ أحسن لثلاثة أمورٍ:

الأول: أنَّها طريقةُ المتقدِّمين مِن أهلِ العلم.

والثاني من فوائِدِ قراءَةِ المَذْهَبِ: أنَّها تُعَرِّفُكَ مَظانَّ المسائل، يعني: أحيانًا تَجِدُ الإنسانَ يبحثُ في مسألةٍ معينةٍ، فإذا لم يكنْ عارِفًا بكُتُبِ الفِقْهِ التي نُسِجَتْ علىٰ مذهبٍ معيَّنٍ تَجِدُهُ لا يعرفُ مظانَّ المسائلِ.

مثلًا: أحكامُ الجارِ أينَ تبحثُها في كُتُبِ الفِقه؟ إذا لم تكنْ قارئًا في كُتُبِ فقهٍ مُتَسَلْسِلَةٍ، وأنَّ كُلَّ بابٍ يَحْوِي مسائلَ كذا وكذا، فلن تعرِفَ أينَ يذكرونَ

---

(١) انظر في ذم التقليد والنهي عنه: «مختصر المؤمل في الرد إلىٰ الأمر الأول» لأبي شامة المقدسي (ص٥٦)، و«أعلام الموقعين» لابن القيم (٣/ ٥٣)، ورسالة «هدية السلطان إلىٰ مسلمي بلاد اليابان» للعلامة المعصومي الخُجَنْدي (ت١٣٨٠هـ) (ص٥٥).

هذه المسألةَ، وستَجِدُ صُعوبةً في معرفةِ مكانِها، فأحكامُ الجار تُذْكَرُ في: «باب الوصايا».

وقد يسألُ شَخْصٌ ما عَلاقةُ أحكامِ الجَارِ ببابِ الوَصايا؟

قالوا: لأنَّه رُبَّما يُوصِي لجِيرانِه، فمَن يَدْخُلُ في جيرانه؟ فتَجِدُ المسألةَ مع الحُكم في هذا البابِ.

ومثلًا أسماءُ الأَعمارِ، **فالصَّبيُّ**: مَن الولادةِ إلىٰ البُلُوغِ، **والمُمَيِّزُ**: مَن بلغَ سبعَ سنوات، ومِنَ البُلُوغِ إلىٰ ثلاثين سنة شابٌّ، ومِن ثلاثين سنة إلىٰ السِّتِّينَ كَهْلٌ، وبعدها شيخٌ، وبعدها هَرِم، هذه أين تجدها؟ في «كتابِ الوَصايا».

وغيرُ ذلكَ مِن مسائلِ العلمِ الدَّقيقةِ، التي إن لم تكنْ قارئًا في كتابِ فقهٍ لا تَجِدُها إلا بصُعُوبةٍ.

وقد يقولُ قائلٌ: هذه المسائِلُ نَجِدُها عن طريقِ البَحْثِ في الحاسوبِ؟

نقول: صحيحٌ، لكنْ القَصْدُ أن يكونَ عند الإنسانِ تأصِيلٌ وذِهْنٌ حاضِرٌ للمسائِلِ، ومعرفةٌ بمظانِّها(١)، وفَرْقٌ بينَ مَن يَعتمِدُ علىٰ حفظِهِ، وبينَ مَن يعتمِدُ علىٰ الآلاتِ الحديثةِ.

---

(١) قال الشيخ العلامةُ صالحُ بنُ علي بن غصون رحمه الله: «إنَّني استفدتُ من حفظِ **الزادِ** أشياء كثيرة؛ من **أهمِّها**: **أوَّلًا**: أنَّني عرفتُ قولَ المذهبِ في المسائلِ الفقهيةِ، **ثانيًا**: أنَّني عرفتُ مكانَ المسألةِ في الزاد، فإذا طُرِحَتْ عليَّ أو أردتُ البحثَ في أيِّ مسألةٍ عرفتُ مكانها في الزَّاد وبقيَّةِ كتبِ الفقه في المذاهب، وبخاصَّة في بعض المسائل الفقهية التي توجد في أبواب متفرِّقة، أو في باب يكون الرابط بينهما غير واضح». **انظر**: «الدرُّ المصون في سيرة الشيخ صالح بن علي بن غصون» للخويطر (ص٣١).

* **للفائدة**: انظر مقدمة كتاب «خبايا الزوايا» للزركشي الشافعي.

والثالث: تحقُّقُ الثَّمرةِ المرجوَّةِ، فإنَّ من يقرأُ في كُتُبِ المذاهب التي جمعت أكثرَ المسائلِ الفقهية، وكفتكَ مُؤنةَ هذا الجمعِ أظهر في التحصيل لمن طلبها بهذه الطريقةِ، بخلافِ مَن لم يقرأ فيها فإنَّك تجدُ فيه من النقص والفوت لأكثر المسائل بسبب عدم استفادته ممَّن سبقه وجمعَ له.

فالحاصِلُ: أنَّ الطَّالبَ في ترتيبِهِ هذا يُحصِّلُ فائدةً كبيرةً، وللمذاهِبِ كُتُبٌ أُخرىٰ، لكن أنا أُوصي طالبَ العلم أن يقرأَ في كُتُبِ الحنابلةِ الفقهيةِ؛ لأنَّ مذهبَهُم مِنْ أَقْربِ المذاهبِ إلىٰ الدَّليلِ، فإنْ كان لطالبِ العلمِ مَلَكَةٌ في العلمِ وقُدْرَةٌ علىٰ البحثِ في الأدلةِ وفهمٌ لها، فعليه الأخذُ بالدَّليلِ وتركُ ما يُخالِفُه؛ لأنَّ اللهَ ﷻ تعبَّدكَ بالدَّليلِ، وذلك في قوله: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾[1].

وكذلك ينبغي لطالبِ العلمِ أن يعتنيَ باللِّسان العربيِّ؛ فيقرأُ في العربيةِ ولا يُهْمِلُها، وفي ذلك يقول الناظم:

مَن فاتَهُ النَّحْوُ فذاكَ الأخْرَسُ وعِلْمُهُ مِنْ كُلِّ فَنٍّ مُفْلِسُ

فالذي لا يَعرِفُ النَّحوَ مثلُ الأَخْرسِ، وعِلْمُهُ يَضْعُفُ في كُلِّ جانب.

وقَدْرُه بينَ الوَرَىٰ مَوضُوعُ وإنْ يُناظَرْ فَهُوَ المَقْطُوعُ

يعني: المَغْلُوب؛ لأنَّ بضاعتَهُ مُزجاةٌ في العربية.

والنَّحوُ تَصَوُّرُه عندنا في الدِّراسةِ النِّظاميةِ أنَّه صَعْبٌ وشاقٌّ، وهذا غيرُ صَحِيحٍ، بل إنَّ النَّحوَ مِن أَلَذِّ العلوم، لكن لا شَكَّ أنه يحتاج إلىٰ مُعَلِّمٍ ناضِجٍ، لكي يُدْخِلَك عليه من بابِه السَّهْل.

---

(١) سورة القصص، الآية: (٦٥).

والنَّحْوُ كما يقول المشايخُ: «مثلُ البيتِ الذي بابُه من حَديدٍ لكن داخِلُهُ مِنْ قَصَبٍ»، فقط ادْفَعِ البابَ وادْخُل، فستَجِدُه سهلًا ولا صعوبة فيه، وهذا وَجَدْناهُ ولَمَسْناه؛ أنَّ النَّحْوَ مِن أَسْهَلِ ما يكون، لأنَّ النَّحْوَ كلامُ العَرَبِ، فلو أتانا رجلٌ يتكلَّمُ مِنَ الصَّباحِ إلى المَساءِ، فإنَّ كلامَه كلَّه لن يَخْرُجَ عن ثلاثةِ أشياء؛ إمَّا أنْ ينطِقَ بـ: «اسْم»، أو: «فِعْل»، أو: «حَرْف»، فالاسْمُ له علاماتٌ، والفِعْلُ له علاماتٌ، والحرفُ معروفٌ، فالنَّحْوُ سَهْلٌ، لكن كما ذكرت: يحتاجُ إلى مُعَلِّمٍ يُلقِّنُهُ شيئًا فشيئًا.

ومِنْ أَحْسَنِ المُؤَلَّفاتِ في النَّحوِ «مُقَدِّمةُ ابنِ آجُرُّوم»، وتُعتبَرُ زُبْدَةً في النَّحوِ، إذا عَرَفَها الطالبُ يَسْهُلُ عليه الباقي، فهي سَهْلةٌ ومُيَسَّرةٌ، وإذا قرأها الطالب وضبطَها، فبإذن الله يفتحُ له، وأَحْسَنُ شَرْحٍ لها شرحُ الشَّيخ محمدِ ابنِ عثيمين الصَّوتي، جعلَ النَّحوَ مثلَ الماءِ، ولذلك أنا دائمًا أقول لأبنائي: «اسْتَمِعُوا أشرطةَ الشَّيخِ محمدِ بن عثيمين تَصِيرُ عندكم مادةُ النَّحوِ مِنْ أَسْهَلِ المُوادِّ، ومِن ألَذِّ المواد».

ثُمَّ بعدَ ذلك إنْ شاء قرأ في «قَطْرِ النَّدَىٰ» لابنِ هشام، وإنْ شاءَ دخلَ في الألْفية مباشرةً «ألفية ابن مالك» إذا كانَ مُتْقِنًا للآجرومية.

وعلىٰ طالب العلمِ العنايةُ بعلمِ الصَّرف، وهذا العلم يعتني ببناء الكلمة وكيفية تصريفها علىٰ ما جاء عن العرب[1]، وهو من علوم الآلة المهمَّة.

يقول ابنُ فارسٍ: «أمَّا التَّصريفُ فإنَّ مَن فاته عِلْمُهُ فاتَهُ الـمُعْظَمُ، لأنَّا نقولُ: «وَجَدَ» وهي كلمةٌ مُبهمةٌ، فإذا صَرَّفنا أَفْصَحَتْ، فقُلْنا في المالِ: «وُجداً»،

---

(١) انظر: «المنصف» لابن جني (١/ ٣)، و«شرح الرضي على الشافية» (١/ ٢).

وفي الضَّالَةِ: «وِجْدانًا»، وفي الغَضَبِ: «مَوْجِدَةً»، وفي الحُزْنِ: «وَجْدًا»، وقال الله -جَلَّ ثناؤُهُ-: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، وقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، كيف تَحَوَّلَ المعنى بالتَّصريفِ مِنَ العَدْلِ إلى الجَوْرِ»[(١)].

ومن الكتب في هذا الفنِّ: «دُرُوس التَّصريف» لمحمد محيي الدِّين عبدالحميد، و«تصريف العزِّي»[(٢)]، وكذا: «شذا العَرْف» للحملاوي، و«لامية الأفعال» لابن مالك، مع مطالعة شروحها.

بعدَ ذلكَ يقرأُ الطالبُ في مُصْطَلَحِ الحديثِ، ومصطلحُ الحَدِيثِ: هو القواعِدُ المتعلِّقَةُ بالسَّنَدِ والمتنِ، وما يدورُ حولَ ذلك[(٣)]؛ مِنْ مَعرفةِ الإسنادِ الصَّحيحِ والإسناد الضعيف، ومَنْ أولُ مَن صنَّفَ في الحديثِ؟ والمؤلفاتُ في ذلك، وكذلك فَنُّ الجرح والتعديل، وغيره مِن توابع هذا الفَنِّ.

وهذا من حيثُ التأصيلُ ينبغي لطالبِ العلمِ أنْ لا يُغْفِلَه، وفَرْقٌ بينَ الاستمراريةِ والاشتغالِ به، وبينَ أنْ تُوَصِّلَ نفسَك على هذا الفنِّ؛ أي: أن تأخُذَ منه ما يكون تأصِيلًا عندك، وتتفهَّم به مصطلحات أهلِ الحديثِ.

ومن المفاهيمِ الخاطئةِ أنَّ بعضَ الناس يَظُنُّ أنَّ أهلَ الحديثِ هُمُ الذين يشتغلونَ بتصحيحِ وتضعيفِ الحديثِ فقط، ويظنُّونَ أنَّ غيرَهم ليسوا مِن أهلِ

---

(١) «الصاحبي في فقه اللغة» (ص١٦٢).

* قال الزَّجاج في «معاني القرآن» (١/ ٣٨٨): «يُقال: أقسط الرَّجل إذا عَدَلَ، وقَسَطَ إذا جار، والعادِلُ مُقْسِط، والجائرُ قاسِط»، **وانظر**: «شرح الرضي على الكافية» (٣/ ٣٣٢)، و«ارتشاف الضَّرَب» لأبي حيان (٢/ ٥٠٩).

(٢) هو عِزُّ الدِّين أبو المعالي عبد الوهاب الزَّنجاني (ت٦٥٥هـ).

(٣) انظر: «النكت على ابن الصلاح» لابن حجر (١/ ٢٢١)، و«البحر الذي زخر في شرح ألفية الأثر» للسيوطي (١/ ٢٢٧).

الحديثِ، وهذا خطأ، والصَّحيحُ: أنَّ أهلَ الحديثِ كُلُّ مَن جعلَ استنباطَهُ ومردَّهُ إلىٰ الحديثِ فهو من أهل الحديث، فليسَ معنىٰ «أهل الحديث» هم الذين يعتنون بتخريجِ الأحاديثِ، بل إنَّ كلَّ مَن اعتنىٰ بالحديث وجعل تصحيحَ مَذْهَبِهِ علىٰ ما نطقَ به النبيُّ ﷺ وصحَّ عنه فهو مِن أهلِ الحديث، سواءٌ اشتغلَ بالتخريجِ أو لم يشتغل.

فينبغي لطالب العلم أنْ يقرأَ في فنِّ مصطلحِ الحديث ، وأوَّلُ ما يبدأُ به: إنْ شاءَ بدأ بـ «البيقونية» كنظمٍ، وإنْ شاء بدأَ برسالة «مصطلح الحديث» للشَّيخ محمد بن عثيمين، فهي بإذن الله نافِعةٌ، وتعطي الطالبَ مَلَكَةً جيِّدةً، تمكِّنُهُ مِن معرفةِ الحديثِ الصَّحيحِ مِنَ الضعيفِ، والشاذِّ، من المعلول، والمُنقطعِ من المتصل، والمرفوعِ من المَوقوفِ، وغيرِه من المسمَّيات التي اصطَلَحَ أهلُ الحديث عليها، أو أنه يختارُ «اختصار علوم الحديث» لابن كثير؛ مع شرحِه للشيخِ أحمد شاكر المسمَّىٰ بـ: «الباعث الحثيث»، وأَصْلُ الكتابِ لابن الصلاح، فجاء ابنُ كثيرٍ بعد ذلك واختصرَه وعَلَّقَ عليه.

ثم إنْ شاءَ التوسُّعَ في هذا الفنِّ والاشتغالَ به فليقرأ: «فتح المُغِيث شرح ألفية الحديث» للسَّخاوي، وهذا أَوْسَعُ ما أُلِّفَ في مصطلحِ الحديثِ.

وينظُرُ في كُتُبِ التَّخريجِ، فيَسْتَفِيدُ منها في معرفةِ كيفيةِ التَّخريجِ، ومعرفةِ الصَّحيحِ مِنَ الضَّعيفِ، وهذا بالتَّمرُّس.

وكذلك لا يُغفِلُ جانبَ السِّيرةِ النَّبويةِ، ولا شَكَّ أنَّ السِّيرةَ لو أرادَ الإنسانُ أنْ يُنَقِّيَها ويُصحِّحَ ما فيها -يعني يُبَيِّنَ الصحيحَ والضَّعيفَ- ما خَلُصَ إلا الشيءُ اليسيرُ.

ولذلك قال الإمامُ أحمدُ: «ثلاثةُ كُتُبٍ ليس لها أصولٌ: المغازي والمَلاحِمُ والتفسيرُ»(١)؛ لأنَّ هذه الأشياءَ لو دَقَّقْتَ فيها هل هذا صحيحٌ أم ضعيفٌ لم يصفَ لك من السِّيرةِ إلا الشَّيءِ اليسير؛ لأنَّ السيرةَ هي أخبارُ الناس، وأخبار الناسِ تَتَنَوَّعُ، فلو حصلَ الآن حَدَثٌ في مكان مُعَيَّنٍ يُمْكِنُ أنْ يذهبَ إليه عَشَرةٌ مثلًا، فيأتي هذا يحدِّثُ بشيءٍ لم يحدِّثْ به الآخرُ، وهناك أشياء مُشْتَركةٌ بينهم أخبروا بها جميعًا.

فهذه حوادثُ السِّيرةِ تَجِدُ كلَّ أَحَدٍ يُحدِّثُ، ويكتب ما يعلم، فما الموقف تجاه هذه الأشياء؟

الصحيح: أنها تُقْرَأُ، ولا بأسَ مِنْ ذِكرها ما لم يتعلَّقْ بها حُكْمٌ شَرْعِيٌّ، نقرؤُها ونتداولُها ونذكُرُها؛ حَدَثَ في السَّنَةِ الفُلانيةِ كذا، وفي السَّنَةِ الفُلانيةِ كذا، وهذه حوادث، ما لم يتعلَّقْ بها حكمٌ شَرْعِيٌّ، فإذا ترتَّبَ على هذا الحَدَثِ أو النَّقْلِ حكمٌ شرعيٌّ فينبغي هنا التَّمْحِيصُ؛ لأنَّ الشيءَ انتقل إلى جَنابِ التَّشريعِ، ونحن مأمورون بالتعبُّدِ بما صَحَّ، فهنا لا بدَّ من التَّمحيصِ.

ومِنْ أخصرِ كُتُبِ السيرةِ التي تبيِّنُ لك مُجْمَلَ السِّيرةِ: كتابُ «مختصر سيرةِ الرسول ﷺ» للشَّيخِ محمَّدِ بنِ عبدِ الوهَّابِ، اختصرَ فيه سيرةَ ابنِ هشام، وإنْ شاءَ قرأ: «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير، هذا كذلك مختصر.

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل» (١/ ٢٩٨) ومن طريقه الخطيبُ في «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٣١) وقال الخطيب عَقِبَهُ: «وهذا الكلامُ محمولٌ على وجهٍ؛ وهو أنَّ المرادَ به كتبٌ مخصوصةٌ في هذه المعاني الثلاثة، غير مُعتمدٍ عليها ولا موثوقٍ بصحَّتِها، لسوءِ أحوالِ مُصنِّفيها، وعدمِ عدالةِ ناقليها وزيادات القُصَّاص فيها».

وانظر في توجيه كلمة الإمام أحمد: «مقدِّمة التَّفسير» لشيخ الإسلام (ص٥٩)، و«البرهان» للزركشي (٢/ ١٥٦)، و«التَّحبير» للمَرْداوي (٣/ ١٤١٨).

وإنْ أرادَ أصحَّ ما يتعلَّقُ بالسِّيرةِ والمغازي مع بيان الفوائد المستنبطة منها؛ فأنا أُرْشِدُ إلى المُجَلَّدِ الثالث من «زادِ المعاد» لابن القيِّم فهذا الكتابُ؛ أعني المجلد الثالث من «زاد المعاد» اعتنى بسيرةِ النَّبيِّ ﷺ، وكيف أنَّه تدرَّجَ في فَرْضِيَّةِ الجهاد، ثم هاجر، ثم فُرِضَ الجِهادُ، ثم جاهدَ، ثُمَّ كيفَ كانت غزواتُهُ؟ وما الحوادث التي حصلت في الغزوات؟ وما الفوائد المستنبطة، فهو مِنْ أَجْملِ ما أُلِّفَ في سيرةِ النبيِّ ﷺ ومغازيه، ولا غِنى لطالبِ العلمِ عنه.

وبالمُناسبةِ: كتابُ ابن القيم بعضُهم يُخْطِئُ في اسْمِهِ فيقولون: «زادُ المِيعاد»، وهذا خطأ، اسمُهُ: «زادُ المَعادِ».

وأنا أقول: ينبغي لكل بيتٍ مسلم أنْ يكونَ فيه هذا الكتابُ؛ وهو في خَمْسِ مجلَّدات، يتكلَّمُ في بدايتِه عن وَضْعِ الخَلِيقَةِ، كيفَ أنَّ اللهَ ﷻ اصْطَفَى الأنبياء، ثم اصْطفى الرُّسُلَ، ثم ختمَهُم بالنَّبيِّ ﷺ، ثم يتكلَّمُ عن أسماءِ النَّبيِّ ﷺ، وعن نسبه وزوجاتِه وأهلِه وآنيته، وهَلُمَّ جرًّا، ثُمَّ يَدْخُلُ في هديه في العبادات؛ في الوضوء، ثُمَّ الصلاةِ، ثُمَّ الزَّكاةِ، ثُمَّ الصِّيامِ، ثُمَّ الحَجِّ، ثُمَّ السِّيرةِ، ثُمَّ بقيَّةِ أحكامِ الشَّرعِ، وهو كتابٌ سَهْلٌ وجَميلٌ، وفيه فوائدُ كثيرةٌ.

وكان أهلُ العلمِ بعدَ ابنِ القيِّمِ لا يُسمُّونَهُ «زادَ المعاد»، وإنَّما يُسَمُّونَه «الهَدْي»؛ لأنَّ اسمَهُ: «زاد المعاد في هَدْيِ خَيرِ العِباد»، أَلَّفَه ابنُ القيِّم ؒ وهو مُسافِرٌ، قيل: إنَّهُ كان ذاهِبًا إلى الحَجِّ، وأَلَّفَ هذا الكتاب[1]، الذي إذا قرأَه الإنسانُ يتعجَّب مِن سَعَةِ علمِ الإمامِ ابنِ القيِّم، كيف أَلَّفَ هذا الكتاب وهو مسافرٌ على جَمَلٍ، وليسَ عندَه مصادرُ ولا مراجِع، لكن يبدو -والعلم عند الله-

---

(١) انظر: «ابن قيم الجوزية، حياته، آثاره، موارده» للشيخ بكر أبو زيد (ص٢٦٠).

أنه ألَّفه ابتداءً في السَّفرِ، ولَمَّا رجعَ واستقرَّ في بلدِه دِمَشْق أعادَ النظرَ فيه، فوثَّقَ ما يحتاج إلىٰ توثيق، و نحو ذلك، وإلا إنْ كان هذا التأليفُ ابتداءً علىٰ ما انتهىٰ عليه في وقتِنا كلّه في سفرِهِ مِنْ غيرِ مراجع فهذا آيةٌ من آيات الله، لأنَّه يَعزو ويَذكر أسانيدَ ورواةً، ويطعن في هذا الراوي، ويذكر من تكلَّم فيه، هذا شيءٌ كبيرٌ، لكنَّه ليسَ بغريبٍ علىٰ إمامٍ مثله، وأنا أقول: هذا الذي يظهر لي.

فهذا الكتاب فيه فوائد من غزواتِ النبيِّ ﷺ، وأحداثِهِ التي حَدَثَتْ له في هذه السِّيرةِ.

وإنْ أرادَ الطالِبُ أنْ يقرأَ فيما هو أوسع فعليهِ بـ: «إمتاع الأسماع»[1] للمقريزي، في بيان هدي النبي ﷺ، ومتاعِه وحلَّتِه، وما يتعلَّقُ بذلك، ولكنَّه كتابٌ موسَّع.

وإن أراد أن يقرأَ مُجمَلَ ما حدثَ في التاريخ فعليه بـ «البدايةِ والنِّهاية» لابن كثير، وهذا الكتابُ لا ينبغي لطالبِ العلمِ أنْ يَدْرسَه دراسةً، لكن يجعل له أوقاتًا يعني: يُخَصِّصها لقراءته، إمَّا قبلَ النوم أو غيره من الأوقات، ويَمُرُّ علىٰ السِّيرةِ والأَحداثِ، فما ثَبتَ ثَبتَ، وما تبخَّرَ تبخَّرَ.

وحدَّثني أحد علماء «شنقيط» فقال: «هذا العلم كنا نسمِّيه في بلادنا علمَ العَجائِز»، لأنَّ الأمَّ كانت تقرأُ علىٰ ولدِها قبلَ نومِه السِّيرةَ، وتقول: «حدثَ في السَّنةِ الفُلانيةِ كذا وكذا» إلىٰ أنْ ينامَ الوَلَدُ، وفي اليوم الثاني يكملون له القصة، وهكذا كل يوم، فما يبلغ الطفل السابعة من عمره إلا وهو يحفظ مجمل سيرة النبي ﷺ من البعثة إلىٰ الوفاة.

---

(١) واسمُهُ كاملًا: «إمتاعُ الأَسماعِ بما للنَّبيِّ ﷺ مِنَ الأَحْوالِ والأَمْوالِ والحَفَدَةِ والمتاع».

فالحاصِلُ: لو أنَّ الأمَّ تعتني بهذا الجانبِ، وتجعلُ لها كتابًا في السيرة مختصرًا، وكُلَّ يوم تقرأُ لهم شيئًا مِنَ السِّيرةِ ، فهذا أمرُ طيِّبٌ.

بعضُ النَّاسِ يقول: «قد تقرأ كلامًا لا يفهمونه!».

نقول: لا بأس، تقرأُ وتختِمُ الكِتابَ ثم تُعيدُهُ، وبعد ذلك تَجِدهم تعلَّمُوا وحَفِظُوا، وإنْ سألوا عن بعض الكلمات تُفَسِّرُها لهم الأمُّ وهكذا، لكنَّ التَّكرارَ يولِّدُ عندَ الولدِ مَلَكَةً في معرفةِ مُجْمَلِ السِّيرةِ.

وبعد ذلك يبدأُ طالبُ العلمِ في قراءةِ كُتُبِ السُّنَّةِ المُسْنَدَة ، فيبدأُ مثلًا بقراءةِ «صحيح البخاري» و«صحيح مسلم»، ثُمَّ بقيةِ الكُتُبِ الستَّةِ.

لكنْ السؤالُ: كيفَ يقرأُ هذه الكُتُبَ؟

فيُقالُ: لا شكَّ أنَّ القراءَةَ بتَرَوٍّ وتَعَقُّلٍ فيها فائدةٌ أكثر، لكن ما لم يُحَصَّلْ كُلُّه لا يتركُ جُلُّهُ، إذا لم تستطعْ قراءتها بسَبَبِ الطُّولِ، فلو أنَّه اجتمعَ أناسٌ وقرؤوا بسرعةٍ متوسِّطَةٍ، بحيث لا يكون هناك تعليقٌ، إنَّما قراءةُ عرض للأحاديثِ وسماعِها، فهذا جَيِّدٌ، مثلًا: بدل أن يقرؤوا «صحيح البخاري» في سبعة أيام، لا مانع من أن يُقرأَ في عشرين يومًا وبتروٍّ يسير، فلو سمعت «صحيح البخاري» في عشرين يومًا! فهذا فضلٌ، تقرأُ وتَسمَعُ، وربَّما يمرُّ عليك أحاديثُ فتُراجعها في البيت، لأنَّ المقامَ مقامُ عَرْضٍ(١).

وهذه طريقةٌ معروفةٌ عندَ أهلِ العلم مِن قَبلُ، فابنُ حَجَرٍ قد قرأَ «البخاري» في عشرةِ مجالس، وقرأ «صحيح مسلم» في ثلاثة أيام، وقرأ «المعجم الصغير»

---

(١) جاء في «الإنجاز في ترجمة الإمام ابن باز» (ص١٢٤) أن الشيخَ صالح بن حسين العراقي (ت١٤٠٤هـ) قرأ سنن النسائي كاملًا على الشيخ ابن باز في تسعةٍ وعشرين يومًا.

للطبراني من الظهر إلىٰ العصر(١)، ممَّا يدلُّ أنَّ القراءَةَ كانت جَرْدًا، بحيثُ أنك تسمع الأَحاديثَ وتمرُّ عليك وتُقيِّدُها، أعني هذا الحديثَ وجدْتَهُ في المكان الفلاني، وهذا الحديث فيه فائدةٌ فتقيِّدُها، وفي البيتِ تراجِعُها.

وهذا ما حَصَلَ في مجالسِ السَّماعِ في الكويت، وهي سابقةٌ لم تكن في الكويت من قبل، وبالمناسبة يُشكَرُ مَن كان قائمًا علىٰ هذه المجالِسِ وأبدعَها وأوجدَها للناس(٢)، ففيها مع فائدة استماع الأحاديث تحصيل أسانيدها.

بعض الناس يقول: هذه قراءة سريعةٌ.

فنقول: نعم، هي قراءَةُ عرضٍ، ولو كان معها تُؤدةٌ يسيرةٌ لجمعت بين الحُسنيين، ومع هذا فليحرص طالب العلم علىٰ سماع كتب السنن والأحاديث.

وهذه الكتب التي ذكرتها يكون بها الطالبُ قد أصَّلَ نفسَه علىٰ قاعدةٍ رَصِينةٍ قَوِيةٍ، تُمَكِّنُهُ بإذن الله من التأصيل والتحصيل.

وآفةُ بعض الطلبة قوله: «أنا قرأتُ هذا الكتابَ».

نقولُ: كَرِّرْ ولا تمل، ولذلك لو نظرتَ في ما كان يدرِّسُهُ الشيخُ محمدُ ابن عُثَيمين لوجدتها كتبَ أصولٍ، ويكرِّرُها مرةً ومرتين حتىٰ يتقنَها الطالبُ، وربَّما قرأَ شيئًا مِنَ المُطَولات، مثل: «الكافي» لابن قُدامةَ وغيرِه، ولكن تجده أمرًا جانبيًّا، وهذه كُتُبٌ يَعرِضُها الشيخُ عرضًا للمراجعةِ ونحو ذلك، لكنَّ الأصولَ كانَ الشيخُ يُكَرِّرُها.

وكذلك علىٰ طالبِ العلمِ أن يعتنيَ بعلمِ الفرائضِ، والفرائضُ وَرَدَ فيها

---

(١) انظر هذه الأخبار في: «الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» للسخاوي (١/ ١٦٢).

(٢) انظر في بيان هذه المجالس: «ثَبَتُ الكويت» للشيخ محمد زياد التكلة.

أحاديثُ أنَّها نِصفُ العلم(١)، كحديثِ: «**تعلَّمُوا الفرائِضَ وعَلِّمُوه، فإنَّهُ نِصفُ العلمِ، وهو يُنْسى، وهو أوَّلُ شيءٍ يُنْزَع مِن أمتي**»(٢)، فهذا الحديث فيه نَظَرٌ من حيثُ الصحة، **لكن ما معناه؟ وكيف تكون الفرائض نصفَ العلم؟**

قالوا: لأنَّ الإنسانَ إمَّا حَيٌّ وإمَّا ميِّت، فإذا كان حيًّا فهو يُديرُ نفسَه وأموالَه، لكن إذا ماتَ يحتاج إلى من يَقْسِمُ هذا المالَ، فلذلك قالوا: إنها نصفُ العلم باعتبار أنَّ الإنسان بين حالين: إمَّا حالُ الحياةِ، وإمَّا حالُ الوفاةِ، فالوفاةُ تحتاجُ إلى من يَقسم تركتَه(٣).

والفرائضُ فنٌّ لابدَّ منه، وقد روي: «**إنَّ العِلمَ سيُقبَضُ، وتظهرُ الفِتَنُ حتى يَخْتَلِفَ اثنان في الفريضةِ فلا يجدانِ مَنْ يَفْصِلُ بينهما**»(٤).

وهذا ما أشار إليه الرحبيُّ بقوله:

وأنَّــه أوَّلُ عِــلْــمٍ يُـفْـقَـدُ ... في الأرضِ حتى لا يكادُ يُوجَدُ

ما معنى الفرائض؟

الفرائِضُ: جمعُ فريضةٍ، وهي علم يختصُّ بقسمَةِ المواريث، وكيف يَقْسِمُ الإنسانُ التركةَ والمواريثَ لأهلها، لقوله ﷺ: «**ألحقوا الفرائضَ بأهلها**»(٥)، وقوله ﷺ: «**إنَّ اللهَ تبارك وتعالى أعطى كُلَّ ذي حَقٍّ حقَّهُ، فلا وَصِيةَ لوارث**»(٦).

---

(١) انظر: «البدر المُنير» (٧/ ١٨٣) و«إرواء الغليل» (٦/ ١٠٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٧١٩) و الدارقطني في «سننه» (٥/ ١١٧).

(٣) انظر في توجيه كون الفرائض نصف العلم: «العذب الفائض» (١/ ٨) للشيخ إبراهيم ابن سيف رحمه الله

(٤) رواه الدارمي (٢٢٩) والدارقطني (٥/ ١٤٣) وانظر: إرواء الغليل (٦/ ١٠٣).

(٥) رواه البخاري (٦٧٣٢) ومسلم (١٦١٥).

(٦) رواه أبوداود (٢٨٧٠) والترمذي (٢١٢٠) وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٦/ ٨٧).

وهذا الفنُّ اعتنى به أهلُ العلمِ مِن قَبلُ ومِن بَعْدُ من جهة التصنيف، بينَ مُختصرٍ ومُطوَّلٍ، ولَمَّا كانَ هذا الأمرُ متعلِّقًا بالأموالِ، والأموالُ تَتْبَعُها النُّفوسُ عادةً، تولَّى الله ﷻ قِسْمَتَها في ثلاثِ آياتٍ، وقال بعضُ أهل العلم: أربع آيات.

* ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾[1] هذه الآية الأولى.

* ﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ﴾[2] هذه الثانية.

* ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾[3] هذه الآية الثالثة.

* والرابعة: ألحقَ بعضُ أهلِ العلمِ قولَه ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾[4]، لينسخ التَّبَنِّي وأُخوَّة الإسلام التي كانوا يتوارثونَ بها في أول الأمر، فقال الله ﷻ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٍ﴾.

وجاء في السنة أحاديثُ منها: الحديث الوارد في نَصِيبِ الجَدَّةِ[5] وقوله ﷺ: «**إنَّ الله أعطى كلَّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ**»[6]، وقوله ﷺ: «**أَلْحِقُوا الفَرائضَ بأهلِها**»[7]، وقوله ﷺ: «**الخالَةُ بِمَنزِلةِ الأمِّ**»[8].

---

(١) سورة النساء، الآية: (١١).

(٢) سورة النساء، الآية: (١٢).

(٣) سورة النساء، الآية: (١٧٦).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٧٥).

(٥) سنن أبي داود (٢٨٩٤) وانظر: «إرواء الغليل» (٦/ ١٢٤).

(٦) سبق تخريجه (ص٨١).

(٧) سبق تخريجه (ص٨١).

(٨) رواه البخاري (٢٦٩٩).

فمِنَ الْمُختصراتِ في هذا الفَنِّ: «البرهانيَّةُ» و«الرَّحبيةُ»، لكن ربَّما يقول طالب العلم: بأيِّهما أبدأُ هذه أم هذه؟

نقول: إذا أردتَ الانتقاءَ فعليكَ بـ«البُرهانية» فهي أحسنُ من «الرَّحبية»؛ ذلك لأنَّ «البرهانيةَ» أقلُّ أبياتًا:

* «**البرهانيةُ**» عدَدُ أبياتها: (١١٢)، وأضافَ لها الشيخُ ابنُ عُثيمين بيتًا[١] فأصبحت (١١٣).

* «**الرَّحبيةُ**» أبياتُها: (١٧٦)، وهذا فرقٌ كبيرٌ.

«البرهانيَّةُ» مليئةٌ بالمادةِ العلميةِ، أمَّا «الرَّحبيةُ» ففيها حَشْوٌ كثيرٌ[٢]، أحيانًا تَجِدُ الرَّحبيَّ رحمه الله يذكُرُ تكملةَ البيتِ ليَجْبُرَه ويأتي بشيءٍ جديدٍ، مثاله:

والوارثونَ من الرِّجالِ عشرة ... أسماؤُهم معروفةٌ مُشْتَهِرَة
الابنُ وابنُ الابنِ مَهما نَزَلا ... والأبُ والجَدُّ له وإنْ عَلا
والأخُ مِن أيِّ الجِهاتِ كانا ... قَد أنزَلَ اللهُ بهِ القُرآنا
وابنُ الأخِ المُدْلي إليه بالأبِ ... فاسْمَعْ مقالًا ليسَ بالمُكَذَّبِ

«**فاسْمَعْ مقالًا ليسَ بالمُكَذِّبِ**» هذا يُسَمُّونَه: حشوًا، أي: تكملة البيت؛ لأنَّ الطالبَ يريدُ مادةً علميَّةً، أمَّا «البرهانية» فليسَ فيها حشوٌ كثيرٌ.

---

(١) انظر: «شرح البرهانية» للشيخ ابن عثيمين (ص١٥٠).

(٢) قال شمسُ الدِّين محمد الفارضي الحنبلي (ت٩٨١) في منظومته في الفرائض:

وهذه بها أرادَ الفارضي ... معرفة الأهمِّ في الفرائض
وجيزةٌ، والحشوُ فيها يَنْدُرُ ... فاحفظ، وحَشْوُ الرَّحَبيِّ سُكَّرُ

انظر: «الدُّرَّة المُضيَّة في شرح الفارضية» للشنشوري (ص٥)

ومِن أجل ذلك كانت «البرهانيةُ» أحسنَ، لكنَّ الرحبيةَ من حيثُ السَّلاسةُ وعُذوبةُ الأبياتِ أفضلُ، ولذلك تَجِدُ أنَّ مَنْ له ميلٌ إلى الشعر ربَّما يرغب «الرَّحبية» على «البُرهانية»، فهذه موازنةٌ يسيرة بين البرهانية والرَّحبية، فإنْ خُيِّرَ الطالبُ فإنه يختارُ «البُرهانية» على «الرَّحبيةِ» للأسباب التي ذكرناها، مع ما في «البرهانية» مِن زيادةِ أبوابٍ لم يذكُرها الرحبيُّ كـ«باب الرد» و«باب ذوي الأرحام»[(١)].

وإنْ أرادَ شيئًا مُطَوَّلًا فهناكَ أَلفِيَّةٌ في الفرائض للشيخ صالح بن حسن البُهُوتي، ولها شَرْحٌ اسمُهُ: «العَذْبُ الفائِضُ» للشيخِ إبراهيم بن سَيف، وكذلك يوجَدُ كتبٌ مؤلَّفَة مثل: «الرائِدُ في علم الفرائض» وغيرها من الكتب.

لكن من حيثُ التأليف فإنَّ أحسنَ ما أُلِّفَ في الفرائضِ في الوقتِ الحديثِ، وهو سَهلٌ جدًّا «كتاب الفرائض» للشَّيخِ عبدِ الصَّمد الكاتبِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وهذا أحدُ شُيُوخي الذين قرأتُ عليهم في المدينةِ النَّبويةِ، و كتابُهُ هو المُقَرَّرُ للمعهد الثانوي في الجامعة الإسلامية، وألَّفَ هذا الكتابَ كمنهجيةٍ لطالبِ

---

(١) لم يتعرَّض الرَّحبيُّ لباب الرَّدِّ وباب ذوي الأرحام لكونه شافعي المذهب. قاله الشيخ ابن قاسم في «حاشية الرَّحبية» (ص٨٢).

قال صاحب «الأرجوزة الوليدية المتمِّمة للرَّحبية» (ص١٤):

وبعدُ فالرَّحبيُّ في أرجوزتِه	أثابه الرحمنُ فيضَ رحمتِه
لم يَنظِمَنْ أحكامَ بابينِ هما	ردٌّ وأرحامٌ على ما عُلِما
لأنَّـه مُـتَّـبِـعٌ للشَّـافعـي	فلا يرى توريثَ غيرِ مَن دُعِي
صاحِبَ فَرضٍ لا يزيدُ فرضُهم	أو عُصْبةٍ فما بَقِي نَصيبهُم

قال في شرحها: «العلة في أنَّ الرَّحبيَّ لم ينظمْ أحكام البابين أنه شافعيُّ المذهب، ومتقدِّمو الشافعية لا يرون إلا توريث أصحاب الفُرُوض والعَصَبات المنصوص عليهم في الكتاب والسنَّة».

العلم في الفرائض؛ أولًا: يأتي لك بالباب، يُعرِّفُه ويذكُرُ ما فيه من الضوابط، ثُمَّ يفرِضُ لك مسألةً ويذكُرُ قِسْمَتَها مع ذِكْرِ الخطوات، فالطالبُ الذي عندَه أدنىٰ علمٍ في الفرائض أو رغبة يستطيعُ أنْ يقرأَه بنفسِهِ مِن غيرِ حاجَةٍ لشيخٍ، فمن حيث المنهجية هو مِنْ أحسنِ الكُتُبِ في الفرائض، ومن حيث التَّأصيل والتَّقعيد فلا شكَّ أنَّ كتابَ الشيخ محمد بن عثيمين الموسوم بـ: «تسهيل الفرائض» جيِّدٌ، والمؤلفات في هذا الباب كثيرة.

كذلك لو حَرَصَ طالبُ العلمِ علىٰ تعلُّمِ البلاغةِ، فهذا جيِّدٌ، و تُفِيدُهُ جِدًّا في تفسيرِ القرآن، وفهم معانيه، ومِنْ أَحسنِ كُتُبِ البلاغةِ للمبتدئين: كتاب «البلاغة الواضِحَة»، فهو كتابٌ جيِّدٌ وسَهْلٌ.

وكتاب «دُرُوس البلاغة» مع شرحِهِ الصَّوتِي للشَّيخِ ابن عُثيمين، فلو سَمِعَهُ الطالبُ و كرَّرَهُ استفادَ من هذا العلمِ وأدركَه إدراكًا جيِّدًا.

هذا ما تيسَّرَ ذكرُهُ فيما يحتاجُهُ طالِبُ العلم في ترتيبِ أولوياتِه للدِّراسَةِ والتَّلَقِّي، وبإذن الله إنْ تأصَّلَ علىٰ هذا المنهجِ سوفَ يُدرِكُ عِلْمًا إنْ ثَبَّتَه الله وبارك فيه، ويكونُ مُؤَصَّلًا تمامَ التأصيلِ، ولذلك تجدُ الزعزعةَ الكثيرةَ تأتي للطالبِ إذا لم يكنْ مُؤَصَّلًا تأصيلًا جيِّدًا ، فإنَّ غيرَ المُؤَصَّل -ولو كان عنده اطلاعٌ وقراءةٌ- ما إن تُورد عليه شيئًا إلا تَذَبْذَبَ أو أتىٰ بالشَّواذِّ مِنَ الاختياراتِ والأقوالِ، لكنَّه إذا كان مُؤَصَّلًا علىٰ ما رَسَمْنَاهُ فبإذن الله سوفَ يُفِيد ويَسْتَفِيدُ.

يبقىٰ هناك علومٌ ربَّما يقولُ البعضُ: لم تُذْكر، مثلُ: المَنْطِقِ وعِلم الكلام، فهذه نقول: يجب أنْ لا يقرأها، لأنَّها علومٌ لا فائدةَ منها[1]، وعلمُ المَنطِق متفرِّعٌ من الفَلْسَفة، **فما معنىٰ الفلسفة؟**

يقول ابنُ القيِّم: «والفيلسوفُ أصلُهُ: «فيلاسوفا» أي: مُحِبُّ الحِكْمةِ، فـ: «فيلا» هي: الحب، و«سوفا» هي: الحِكْمة»[2].

ولذلك الفلسفةُ والفيلسوف ينظرون إلىٰ حكمة الشيءِ، والنَّظَر إلىٰ الحِكْمةِ ليس به بأسٌ، لكن عندَهم إذا لم تعرف الحكمةَ لا تتعبَّد، ومعلومٌ أنَّ أحكامَ الشرعِ فيها شيءٌ معلومُ الحكمةِ؛ قد نَصَّ الشرعُ عليه، وفيها شيءٌ مجهولُ الحكمة، يعني المقصود منها: التعبُّدُ، وهذا ما أشارت إليه عائشةُ رضي الله عنها عندَما جاءت مُعاذةُ بنتُ عبد الله تسأل فقالت معاذةُ: «ما بالُ الحائض تقضي الصَّومَ، ولا تقضي الصلاةَ؟»، فقالت: «أَحَرُوريَّةٌ أنتِ؟»، قلتُ: «لستُ بحرورية، ولكني أسأل»، قالت: «كان يُصِيبُنا ذلك، فنُؤْمَرُ بقضاءِ الصَّومِ، ولا نُؤْمَرُ بقضاءِ الصَّلاة»[3]، أي: هكذا تعبَّدنا اللهُ، وانتهىٰ الأمر.

وهناك أشياءُ تكونُ معلومةَ الحكمةَ؛ مثل قولِ النبيِّ ﷺ: «**زُورُوا القُبورَ**»، قال: «**فإنَّها تُذَكِّر الآخرة**»[4]، وهذه هي الحِكْمة.

---

(١) **انظر**: «ذم الكلام وأهله» للهروي (٥/ ٧١)، و«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ٤٥٧)، و«الصواعق المرسلة» (٤/ ١٢٦٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/ ١٠١٧)، وانظر: «التِّسعينية» لشيخ الإسلام (١/ ٢٥٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢١) ومسلم (٣٣٥) واللفظ له.

(٤) رواه الترمذي (١٠٥٤)، وهو في مسلم (٩٧٦) بلفظ: «...**فَزُوروا القُبورَ فإنَّها تُذَكِّر الموت**».

لكن تُوجَدُ أشياءُ غير معلومةِ الحِكْمة، مثل: «غسل الميِّت»، **ما الحكمة منه؟**

بعض الناسِ يقولون: «تطهيرُهُ»، نقول: ليست هذه الحكمة؛ لأنه يمكِنُ أن يكونَ غَرِقًا ثُمَّ نُخرِجُه ونَغسِلُه، فإذًا الحكمةُ غيرُ معلومةٍ، ولذلك تَجِدُ في بعضِ كُتُبِ الفقهِ يذكرون موجباتِ الغُسْلِ فيقولون: والموتُ تعبُّدًا، يعني غير معلوم الحكمة؛ لأنَّه يمكنُ أنْ يقعَ إنسانٌ في حوضِ سباحةٍ أو في البحرِ مثلًا فيموتُ فيُخْرِجُونَه ويُغَسِّلُونَه ويُكَفِّنونَه، إذًا المسألةُ ليست مسألة تطهيرٍ؛ لأنه خرجَ مِنَ الماءِ، فإذًا يوجد أشياء تعبُّدية.

فالفلاسِفَةُ يُرِيدونَ أنْ يَطَّردوا حتى في الأشياءِ التعبُّديةِ، ولذلك لم يُؤمنوا بسببِ هذا الشيء، ولمَّا توسعَتْ دائرةُ الإسلامِ ووَصَلَتْ أطرافَ أوروبا تُرْجِمَتْ كُتُبُ اليونان الفلسفيَّة، وأوسَعُ ما تُرْجِمَتْ فيه كتبُ المنطق وكتبُ اليونان في عهد المأمون(١)، حتى أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية قال عبارةً شديدة: «لا أظنُّ أنَّ الله يغفل عن المأمون»(٢)، بسبب فتحِ هذا الباب؛ لأنه بسبب تلك الكتب حصلت فتن عظيمة و بدع كثيرة.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢/ ٨٤)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٧٢)، و«صون المنطق» للسيوطي (ص٤)، و«لوامع الأنوار» للسفاريني (١/ ١٢٦).

(٢) قال الصفدي في «غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم» (١/ ٤٦): «حدثني من أثق به أن الشيخ تقي الدين أحمد ابن تيمية رحمه الله كان يقول: «ما أظن أن الله يغفل عن المأمون، ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخال هذه العلوم الفلسفية بين أهلها»».

وقد قال الصفدي عن شيخ الإسلام كما في كتابه «الوافي بالوَفَيات» (٧/ ١٥): «كنتُ أحضُرُ دروسَهُ، ويقعُ لي في أثناءِ كلامِه فوائد لم أَسْمَعْها مِن غَيرِه، ولا وقفتُ عليها في كتاب -رحمه الله- وعلى الجملةِ فما رأيتُ ولا أرى مثلَهُ في اطلاعِهِ وحافظته».

فإن قال قائل: ما علم الكلام؟

فالجوابُ: علمُ الكلام: هو الجِدال في إثباتِ العقائد، فعلماءُ الكلام هم الذين يُجادلون حتى يُثبتوا العقائد عن طريق الجَدَلِ، لَمَّا تقولُ مثلًا: «وُجوبُ الإيمان بالله»، فإنهم يقيمون جِدالًا ومُناظرةً حتى يُثبتوا هذا، فإذا لم يثبتوا ذلك بالجِدال والكلامِ لم يؤمنوا، ولذلك تجدُهُم في بابِ الصفاتِ والإيمان يَضطربون اضطرابًا كثيرًا، هذا من باب التقريب لما هم عليه.

ولذلك يقولُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ فيمَنْ يأتي علمَ الكلام: «حُكْمِي في أهلِ الكلامِ أن يُضْرَبُوا بالجَرِيد...»[(١)].

وقد حَذَّرَ علماءُ الإسلام مِن عِلْمِ المَنْطِق، وقد قيل: «مَنْ تمنطَقَ تزندَقَ»، وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «المنطق اليُونانيُّ لا يحتاجُ إليه الذَّكيُّ ولا ينتفعُ به البليد»[(٢)]؛ لأنك لو نظرتَ في علمِ المنطقِ لوجدتَهم يُقَعِّدُون القاعدةَ ويأتونُ لها براهين وأمثلةٍ ويجادلونَ عنها، ثُمَّ إذا تفحَّصَها العاقِلُ وفهِمَها يرى أنَّها تحصيلُ حاصِلٍ، يعني: شَيءٌ بَدهيٌّ، فلذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إنَّ عِلْمَ المنطقِ لا يحتاج إليه الذكيُّ ولا ينتفعُ به البليدُ».

---

(١) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (١/ ٤٦٢) والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص١١٨).

* **سئل الشيخ ابن جرَّاح: ما رأيك بكتب الكلام مثل «جوهرة التوحيد» [لإبراهيم اللَّقاني]؟**
فقال: «علم الكلام ليس من العقيدة، خارجٌ عن الكتاب والسنة، وهل دخلت الضلالات والفتن والبدع إلا من علم الكلام؟! وهل محنة الإمام أحمد إلا من علم الكلام؟! هذا الدينُ يؤخذُ من الكتاب والسنة».
انظر: «عالم الكويت وفقيهها وفرضيها الشيخ محمد بن سليمان آل جرَّاح» (ص٣٧١).

(٢) «الرد على المنطقيين» (ص٤٥).

ربما يقولُ قائلٌ: هذا شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رَدَّ على المناطِقَة، وله كتابٌ اسمُهُ: «الردُّ على المنطقيين»، وكذلك له ردودٌ عليهم في بعض كُتُبِهِ الأخرىٰ.

نقول: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله دخلَ هذا البحرَ وعرفَهُ لكي يُرْدِيهِم بسلاحِهِم، كما قال ابن القيم في «النُّونية»:

ومِنَ العجائبِ أنَّهُ بِسِلاحِهِمْ ... أَرْداهُمُ تحتَ الحَضيضِ الدَّاني[1]

لكن في بدايات طالبِ العِلمِ لا ينبغي أنْ يَدْخُلَه؛ لِئَلَّا يُلبِّسَ على نفسِهِ، وتكثُرَ عليه الشُّبَه، لكن لو أنَّ الطالِبَ تَأَصَّلَ وأدرك علمًا يُحصِّنُه، ثُمَّ بعد ذلك أرادَ أنْ يَدْخُلَ في علمِ المَنْطِقِ مع تَحَصُّنِهِ تَحَصُّنًا جيدًا نقول: إنَّ الأمرَ له، ولكن نُرَغِّبُ بأنْ لا يدخل[2].

وبإذن الله إنْ سارَ الطالبُ على المنهجيةِ التي رُسِمَتْ فإنه سيستفيدُ ويدركُ الشيءَ الكثيرَ.

---

(١) «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» (رقم البيت: ٣٦٨٧).
(٢) انظر: حاشية الصَّبان على «شرح السُّلم للملوي» (ص٤٢).

الفصلُ الرابع:
مَرْحَلةُ ما بعدَ التَّأصيل

بعد ما تقدَّمَ بيانُ شيءٍ من آدابِ الطَّلَبِ، وكيفية تأصيلِ العِلْمِ وتحصيلِهِ، يَجْتَهِدُ طالبُ العلمِ في نشرِ العِلْمِ والدَّعوةِ إلى الله، مُسْتَحْضِرًا الآدابَ، ومُمْتَثِلًا جوامِعَها فيما قاله ﷺ: «**إنَّ الهَدْيَ الصَّالحَ، والسَّمْتَ الصَّالِحَ، والاقتصادَ، جُزْءٌ مِن خَمْسَةٍ وعشرين جُزءًا مِنَ النُّبوَّةِ**»[1].

وهذه مِنْ جوامِعِ الكَلِمِ الذي أُوتِيَهُ ﷺ، قال ابن القيم: «جوامِعُ الكَلِم: هي الألفاظُ الكُلِّيَّةُ العامَّةُ المتناوِلَةُ لأفرادِها»[2].

فعلى طالب العلمِ جُملةٌ مِنَ الأُمورِ بعدَ مرحلةِ التَّأصيلِ والتَّحصيلِ، فمن ذلك:

١ **التَّمَسُّكُ بهَدْيِ النَّبيِّ ﷺ في الظاهِرِ والباطِنِ**، متأسِّيًا به في الأمورِ كُلِّها، راجيًا المثوبةَ من الله ﷻ، مُسْتَحْضِرًا قولَه سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

فالعِلْمُ وسيلةٌ للعَمَلِ، ومعرفةُ آثارِ النَّبيِّ ﷺ سبيلٌ للعملِ بها.

---

(١) رواه أبوداود (٤٧٧٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنه، وله شاهد من حديث عبد الله بن سَرْجِس أخرجه الترمذي (٢٠١٠) بلفظ: «**السَّمْتُ الحَسَنُ والتُّؤَدةُ والاقتصادُ جزءٌ من أربعةٍ وعشرين جزءًا من النبوَّة**»، وقال الشيخ الألباني عن حديث الترمذي: «حسن صحيح»، «صحيح الترغيب» (١٦٩٦).

(٢) «أعلام الموقعين» (٢/ ٢٦).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٢١).

قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «هَتَفَ العِلْمُ بالعَمَلِ، فإنْ أجابَهُ وإلَّا ارْتَحَل»[(١)].

ومن التَّمسُّك بالهديِ النَّبوي والتَّأسي به -وهو ثمرة العلم-: حُسْن العبادة لله سبحانه وتعالى، فعلى طالبِ العلم أن يكون على نصيبٍ وحظٍّ وافرٍ من العبادةِ؛ لأنه لا غِنى لطالب العلم عنها، لاسيما بعد التأصيل والتَّحصيل؛ فقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم على علمٍ وعبادةٍ، وكذلك خلفاؤُهُ من بعدِه، وكُبراءُ أصحابِه، وأئمةُ الهُدى، وهو من التزوُّدِ للتقوى، الذي هو العملُ الصالحُ.

فعليك بنوافل العبادات؛ كالصلاة، لاسيما أوقات المناجاةِ والنُّزولِ الإلهي، كما قال جبريل عليه السلام للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**أحْبِبْ مَن شِئتَ فإنَّكَ مُفارِقُهُ، واعْمَل ما شِئتَ فإنَّكَ مَجْزِيٌّ به، واعلمْ أنَّ شرفَ المؤمن قيامُهُ بالليل**»[(٢)].

وكذلك لا تنسَ نصيبكَ من الصِّيام الذي هو جُنَّتُك من النَّار، وعليك بالصَّدقةِ التي هي برهان الإيمان بـخُلْفِ الله لباذل العاجِل لينال الآجِلَ، وتابِعْ بين الحجِّ والعُمرةِ فإنَّهما ينفِيان الفقرَ والذُّنوبَ كما ينفي الكِيرُ خبثَ الحديدِ والذَّهبِ والفِضَّةِ[(٣)].

وعليك بالمحافظةِ على وِرْدٍ من ذِكْر الله تَلتزِمُهُ في صباحِكَ ومسائكَ وعند نومِك، وذِكْرٍ يلهجُ به لسانُكَ ليطمئنَّ به قلبُكَ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٤)].

فتكون بذلك على عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يزالُ لسانُكَ رَطْبًا من ذِكْر الله**»[(٥)].

---

(١) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص٣٧).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٣٠٦)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

(٣) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي (٨١٠).

(٤) سورة الرعد، الآية: (٢٨).

(٥) رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٤٩١).

فالتسبيحُ والتَّحميدُ والتَّكبيرُ والتَّهليلُ هُنَّ الباقِيات الصالحات[(١)]، وأكْثِر من الاستغفارِ لله تَجِدِ المَعونةَ، وأفضَلُ الذِّكرِ قراءةُ القرآن.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[(٢)]، فالغفلةُ سببٌ لانفِراطِ الأمرِ في شأنك كلِّه، فاحْذرها.

وعليك بالسَّمْتِ الصالحِ الذي هو الهيئةُ الظاهِرَةُ للطالبِ، وهناك عَلاقةٌ بينَ الظاهِرِ والباطِنِ، يقولُ شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ ما يقومُ بالقَلْبِ مِنَ الشُّعورِ والحالِ يُوجِب أمورًا ظاهرةً، وما يقومُ بالظَّاهِرِ من سائِرِ الأَعمالِ، يُوجِبُ للقَلْبِ شُعُورًا وأَحوالًا»[(٣)].

فليَحْرِصْ طالبُ العلمِ أن يكونَ على سَمْتٍ صالحٍ يَدُلُّ على التُّؤَدَةِ والرَّوِيَّةِ والبُعْدِ عمَّا يُوجِبُ خِفَّتَهُ وطَيشَهُ؛ مِنَ العَجَلَةِ المَذْمُومَةِ، والتنابُزِ بالأَلقابِ لأقرانه، وعليه بالتَّواضُعِ للحَقِّ والخَلْقِ، وعليه التَّحَلِّي بالمُروءَةِ، ولا ينشغِلُ بما لا يَعْنِيه، ولا يَجْلِسُ مع مَنْ لا يَسْتَرْعِيه.

وأمَّا الاقتصادُ فيشمَلُ كُلَّ ما كان مِنْ أَمْرِ الدُّنيا، فالتَّقَلُّلُ منها مَحْمُودٌ، والبُعْدُ عن مُضاهاةِ أَهلِها؛ فإنَّ هذا يرفَعُ قدرَهُ وبه يصون عِلْمَهُ.

٢ الحرصُ غايةَ الحرصِ على الوقتِ؛ مِن جِهَةِ حفظِهِ واغتنامِهِ،

فالوقتُ هو عُمُرُ الإنسان، ولأهميته أقسم الله به في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾[(٤)]،

---

(١) إشارة إلى الحديث الذي أخرجه النسائيُّ في «الكبرى» (١٠/ ٣٢٦-رقم: ١٠٧٩٤)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣٢٦٤).

(٢) سورة الكهف، الآية: (٢٨).

(٣) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٩٢).

(٤) سورة العصر، الآية: (١).

فالعصرُ هو الدَّهْرُ والزَّمانُ، قال الإمام الشافعي: «صَحِبْتُ الصُّوفيَّةَ فما انتفعْتُ منهم إلا بكلمتين، سمعتهم يقولون: «الوقتُ كالسَّيْفِ فإِنْ قطعْتَهُ وإلا قطعَكَ»، و«نفسك إن لم تَشْغَلْها بالحَقِّ، شغلتك بالباطل» »[1].

٣ مذاكرةُ المحفوظات، وتكرارُ النَّظَرِ فيما قيَّدَهُ من الفوائدِ في مرحلةِ التَّحصيلِ، فإنَّ تقييدَ الفوائدِ حالَ التَّحصيلِ لا غِنى لطالبِ العلمِ عنه، كما قيل:

العِلْمُ صَيْدٌ، والكِتابةُ قَيْدُهُ ... قَيِّدْ صُيُودك بالحِبالِ الواثِقَة
فَمِنَ الحماقَةِ أن تَصِيدَ غَزالةً ... وتَفُكَّها بينَ الخَلائِقِ طالِقَة[2]

فالمذاكرةُ لها أثرٌ كبيرٌ في تثبيتِ العِلْمِ، وفي قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾[3] دليلٌ على ذلك.

يقول الشيخُ ابنُ سعدي في بيان معنى هذه الآية :«أي: علماءَ، حُكماءَ، حُلماءَ، مُعَلِّمين للناس، ومربِّيهم بِصِغارِ العِلْمِ قبلَ كِبارِهِ، عاملين بذلك، فهم يأمرونَ بالعِلْمِ والعَمَلِ والتَّعليمِ التي هي مدارُ السَّعادةِ، وبفوات شَيءٍ منها يحصُلُ النَّقصُ والخَلَلُ، والباء في قوله ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ﴾، باءُ السَّببيةِ، أي: بسَبَبِ تعليمكم لغَيْرِكم، المُتَضَمِّن لعِلْمِكُم ودَرْسِكُم لكتاب الله وسُنَّةِ نبيِّهِ، التي بدَرْسِها يرسَخُ العلمُ ويبقى، تكونون ربانيين»[4].

---

(١) انظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٢٠٨)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٥٤٦).
(٢) نسب الشيخ عثمان بن شطا في «إعانة الطالبين» (٤/ ٢) هذين البيتين إلى الإمام مالك.
(٣) سورة آل عمران، الآية: (٧٩).
(٤) «تفسير السعدي» (ص١٣٦).

و جاء في «الصَّحيحين» أنَّ جِبريلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يُدارِسُ النبيَّ ﷺ القرآنَ[١]، وما ذاك إلا لتَثْبيتِه وبقائِه في صَدْرِه.

وجاءَ عن الزُّهريِّ أنَّه كان يقولُ لجاريةٍ عندَه: «حدَّثنا عُرْوةُ: ثنا فلان، ويَسْرُدُ عليها ما سَمِعَهُ منه، فتقول له الجارية: «والله ما أدري ما تقول!»، فيقول لها: «اسكتي...، فإِنِّي لا أُرِيدُكِ، إنَّما أُرِيدُ نفسي»[٢]، فهو يريدُ عرضَ محفوظاتِه؛ لِمَا للعَرْضِ مِنَ الثَّمرةِ والفائِدَةِ.

٤ **مصاحبةُ مَن يُعِينُهُ على الطَّلَب**، والاستزادَةِ مِنَ الخيرِ الذي فُتِحَ بابُهُ له، فيُصاحِبُ مَن يستفيدُ منه؛ لأنَّ الصَّاحِبَ ساحِبٌ كما يقال، وفي الحديث: «**مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والسُّوء، كحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِير، فحامِلُ المِسْك: إمَّا أن يُحْذِيَك، وإمَّا أن تَبْتاعَ منه، وإمَّا أن تَجِدَ منه رِيحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكِير: إمَّا أن يُحرِقَ ثِيابك، وإمَّا أن تَجِدَ رِيحًا خبيثةً**»[٣].

٥ **لُزُومُ التَّواضُعِ، والبُعْدُ عن الكِبْر**، وتَرْكُ البحثِ فيما لا طائِلَ تحتَه، أو فيما لا يعنيك، أو في أمورٍ ليستْ من شأنِك، وكذا الحَذَرُ مِن تتبُّعِ شَواذِّ المسائلِ فَضْلًا عن تَبَنِّيها والقولِ بها؛ فإنَّها مزِلَّةٌ لقَدَمِ الطالِبِ، وسَبيلٌ مِن سُبُلِ الشَّيطان.

٦ **الحَذَرُ ممَّا يُسَمَّى باسْتِعْراضِ العَضَلاتِ لِمَا حصَّلَهُ من العِلم**، على سبيل إِشْعارِ الحاضرين بما هو عليه مِنْ هذا الشأنِ؛ ليَصْرِفَ وُجُوهَ

---

(١) رواه البخاري (٦) ومسلم (٢٣٠٨).

(٢) البداية و النهاية لابن كثير (١٣/ ١٣٤)

(٣) رواه البخاري (٥٥٣٤) ومسلم (٢٦٢٨) وفي لفظٍ عند أبي يعلى الموصلي في مُسنده (٧٣٠٧): «... ريحًا مُنتنة».

النَّاس إليه، ففي الحديث: «**فمَنْ كانت هجرتُهُ إلىٰ الله ورسولِه، فهجرتُهُ إلىٰ الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلىٰ دنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**»[1].

٧ **لُزُومُ غَرْزِ العلماءِ المُعْتَبرين في النَّوازِلِ وما عليه الفتوىٰ**، فإنَّهم جُنَّةٌ لمَنْ خلَفَهم، فإنَّ تَصَدِّي طالبِ العلم للنَّوازل هَفْوَةٌ و بُعْدٌ عن التوفيق، وعليه أن يَكِلَ الأمرَ إلىٰ أهلِه، ودِينُ الله محفوظٌ والعاقبةُ لأهلِه، كما قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[3]، والعافِيَةُ والسَّلامةُ لا يَعْدِلُها شَيءٌ.

٨ **إقامةُ الدُّروسِ المَنهجيةِ لبعضِ طلابِ العلمِ المُبتدئينَ**، فإنَّ ذلك مما يُعِينُ علىٰ مُذاكرةِ العِلمِ والاستمرارِ في تَحْصِيلهِ، و بابٌ مِنْ أبوابِ بَثِّ العلمِ بينَ الأَنامِ، وأَنْ يَقْصِدَ بهذه الدُّروسِ التباحُثَ والاستفادَةَ مِن إِخوانه، وذلك بتكرارِ الأُصولِ المُعتَمَدَةِ في الفُنُونِ، لكي يَسْتَحْضِرَها ويُدْرِكَ ما فيها مِنَ الإشاراتِ والعِباراتِ، ويَكْشِفَ بها مُخدَّراتِ المسائِلِ، وليحرِصْ علىٰ أن يكونَ الدَّرْسُ يوميًّا أو شِبْهَ يوميٍّ؛ لأنَّ البُعْدَ يُنسي، ويَجْلِبُ الكَسَلَ والملَلَ، وعليه ألا يَزْهَدَ بتدريسِ العِلْمِ لِقِلَّةِ المُرِيدِين والطَّالبينَ، فاللهُ يَصْطَفِي مَن يشاءُ.

واجعَلْ يا طالبَ العلمِ دروسَكَ في أصولِ الفُنُونِ والمتونِ المُعْتمدَةِ، ولا بأسَ بقراءَةِ شَيءٍ مِنَ الكُتُبِ المُوَسَّعةِ لبعضِ الطُّلابِ ممَّن تَرىٰ فيهم

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٥).

(٢) سورة: التوبة، الآية: (٣٣).

(٣) سورة: الأعراف، الآية: (١٢٨).

نُبْلًا وطلبًا للاستفادَةِ، لتستفيدَ وتُفِيدَ، وكن علىٰ هذا السَّبيلِ، فإنَّ معكَ حِذاءَكَ وسِقاءَكَ حتىٰ تلقىٰ ربَّك عَزَّ وَجَلَّ.

أسألُ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يُنَوِّرَ قلوبَنا بطاعتِه وخشيتِه وأن يرزقَنا الإيمانَ والعملَ الصالحَ، وأن يجعلَ عملي خالصًا لوجهِه، وموافِقًا لمرضاته، ونافعًا لعبادِه، إنَّه جوادٌ كريمٌ، والحمدُ لله رب العالمين.

فهرس أهم المصادر والمراجع

- **الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة**، اعتنى به : هيثم الحداد ، دار ابن الجوزي.
- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.
- **إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين**، لعثمان بن شطا البكري ، دار إحياء الكتب العربية لصاحبها عيسى البابي الحلبي.
- **أعلام الموقعين عن رب العالمين** ، لابن القيم ، تحقيق : جماعة من الباحثين ، دار عالم الفوائد.
- **إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان** ، لابن القيم ، تحقيق : محمد عزير شمس ، دار عالم الفوائد.
- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم** ، لشيخ الإسلام ، تحقيق : د. ناصر العقل ، دار العاصمة.
- **اقتضاء العلم العمل** ، للخطيب البغدادي ، تحقيق : الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف.
- **البداية و النهاية** ، لابن كثير ، دار هجر.
- **تاريخ آداب العرب** ، لمصطفى صادق الرافعي ، دار الكتب العلمية.
- **تاج العروس من جواهر القاموس**، لمحمد مرتضى الزبيدي، طبعة الكويت.
- **تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري** ،لابن عساكر، اعتنى بنشره: حسام الدين القدسي، مطبعة التوفيق، دمشق.
- **التحبير شرح التحرير** ، للمرداوي ، تحقيق جماعة من الباحثين ، مكتبة الرشد.

- **تذكرة السامع و المتكلم في أدب العالم والمتعلم**، لابن جماعة، تحقيق: عبدالكريم الحجوري ، دار الآثار.
- **تقريب التهذيب** ، لابن حجر ، تحقيق : محمد عوامة ، دار المنهاج و دار اليسر.
- **جامع بيان العلم وفضله**، لابن عبدالبر، تحقيق: حسن الزهيري، دار ابن الجوزي.
- **الجامع لأخلاق الراوي و آداب السامع**، للخطيب البغدادي ، تحقيق : محمد عجاج الخطيب ، مؤسسة الرسالة.
- **جمع الجيوش و الدساكر على ابن عساكر** ، لابن عبدالهادي الحنبلي المشهور بابن المبرد ، تحقيق : حسين القحطاني ، دار العقيدة.
- **الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر** ، للسخاوي ، تحقيق: د. إبراهيم باجس ، دار ابن حزم.
- **الخصائص** ، لابن جني ، تحقيق : محمد زهري النجار ، دار الكتب المصرية.
- **الدرة المضية في شرح الفارضية**، لعبد الله الشنشوري الشافعي، المكتب الإسلامي ١٩٦١هـ.
- **ديوان أبي العتاهية** ، دار بيروت للطباعة والنشر
- **الرد على المنطقيين** ، لشيخ الإسلام ، تحقيق : عبدالصمد الكتبي ، مؤسسة الريان.
- **سير أعلام النبلاء** ، للذهبي ، تحقيق : جماعة من الباحثين ، مؤسسة الرسالة.
- **شرف أصحاب الحديث**، للخطيب البغدادي، تحقيق: الداني آل زهوي، عالم الكتب.
- **الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين**، للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، دار الآثار.
- **الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة**، لابن القيم، تحقيق:د.علي الدخيل الله، دار العاصمة.
- **صون المنطق و الكلام عن فن المنطق و الكلام**، للسيوطي علق عليه: علي سامي النشار ، طبع على نفقة مكتبة الخانجي.

- **طبقات الحنابلة**، لابن أبي يعلىٰ، تحقيق: عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان.
- **غيث الأدب الذي انسجم في شرح لامية العجم المطبوع باسم الغيث المسجم** ، للصفدي ، المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٠٥ ه.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، لابن حجر، تحقيق : نظر الفاريابي ، دار طيبة.
- **فتح الجليل في ترجمة و ثَبَت شيخ الحنابلة عبدالله بن عبدالعزيز العقيل** ، جمع و تخريج : محمد زياد التكلة ، دار البشائر.
- **فرض طلب العلم** ، للآجري ، تحقيق : علي الرازحي ، مكتبة المعارف.
- **الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية** ، لابن القيم ، دار عالم الفوائد.
- **الكامل في ضعفاء الرجال**، لابن عَدِي، تحقيق: د.مازن السرساوي، مكتبة الرشد.
- **لطائف المعارف فيما لمواسم العمر من وظائف** ، لابن رجب ، اعتنىٰ به : عصام موسىٰ هادي ، مؤسسة الريان.
- **المحاسن والمساوئ** ، لإبراهيم البيهقي ، طبعه المستشرق فريدريك شوالي ، طبع ليبيغ ١٩٠٢م.
- **مدارج السالكين** ، لابن القيم ، تحقيق : جماعة من الباحثين ، دار عالم الفوائد.
- **المروءة وما جاء في ذلك عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين**، لابن المرزبان، تحقيق : محمد خير رمضان يوسف ، دار ابن حزم.
- **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، لابن القيم، تحقيق: د. عبدالرحمن قائد ، دار عالم الفوائد.
- **مقدمة في أصول التفسير** ، لشيخ الإسلام ، تحقيق : د.عدنان زرزور.
- **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** ، لابن الجوزي ، تحقيق : د. علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي.

- **مناقب الشافعي** ، للبيهقي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار التراث.
- **مواقف اجتماعية من حياة الشيخ عبد الرحمن السعدي**، لمحمد عبد الرحمن السعدي، ومساعد عبد الله السعدي، دار الميمان.
- **المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد**، لابن مفلح، تحقيق د.عبد الرحمن العثيمين ، مكتبة الرشد.
- **النشر في القراءات العشر**، لابن الجزري، تحقيق: د. خالد أبو الجود، دار ابن حزم و دار المحسن.
- **الوافي بالوفيات**، للصفدي، اعتناء :أحمد الأرناؤوط وآخر ، دار إحياء التراث العربي.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدِّمة المؤلف	٥
الفصلُ الأوَّلُ: أهميةُ العلم وفضلُه	٧
الفصل الثَّاني: آداب طالب العلم	٢٣
الفصل الثالثُ: منهجية طالب العلم	٥١
الفصلُ الرابع: مَرْحَلةُ ما بعدَ التَّأصيل	٩١
فهرس أهم المصادر والمراجع	٩٩

مكتب إتقان
للتحقيق والدراسات العلمية